

اعترافات امرأة صغيرة



دار دريم بن للطباعة و النشر
العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا ٨، مدخل ١
هاتف: (١٠٠٣٢٨٨٥٩٦) ٠٠٢٠
بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

اعترافات امرأة صغيرة

هنا منصور

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف: عمار جمال العبد

مراجعة، تنسيق وإخراج داخلي: دريم بن

رقم الإيداع: 2019 / 25138

I.S.B.N \ 978-977-85605-3-4

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونياً نسخاً أو تسجيلاً أو تخزيناً، دون إذن خطي من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

اعترافات امرأة صغيرة

رواية

هنا منصور



إهداء

إلى بناتي اللاتي رأين الكون في عيني وبناتي اللاتي لم
يسعني عمري للقائهن..

شكر و امتنان

لكل من والديّ، أبي الذي أعطاني ثقة جعلتني أرى حبه في كل خطوة أخطوها، فصنتها..

و أمي التي احتوتني و ما زالت...

و ذلك الرجل الذي جدّد لي أحلامي حتى صارت واقعاً، زوجي المحترم.. إبراهيم

البداية..

استأجرت فتاة، أثارت قضيتها الرأي العام مؤخرًا، قاعة كبيرة وقامت بدعوة كثير من الصحفيين والإعلاميين و ذوي الرأي لتحكي لهم عن تفاصيل قصتها منذ البداية. وأعلنت أنها ستدعو كل شهود الحادث إلى اللقاء وأن من ستسرد تفاصيل الحكاية هي شاهدة عليها منذ الطفولة.

و في اليوم المقرر حضر الجمهور و تقدمت فتاتان نحو المنصة واحدة يعرفها الجميع من صورها التي تم نشرها عبر كل وسائل الاتصال، صاحبة القضية والأخرى أخفت وجهها ودخلت خلف الستارة لتلقي الحكاية. وكانوا قد أعدوا لها كاميرات لتراقب الجمهور أثناء حديثها.



الحكاية

الفصل الأول

«لا تصادقي أو تصدقي امرأة كلهن كاذبات»

هذا ما كان يكرره أبي كلما تحدثت عن واحدة من جنس النساء. يقول ذلك و ينسى تماماً أنني واحدة منهن، وأن قوله في اتهام لي بالكذب.

لم أستطع أن أعمل بقوله طويلاً رغم أنني لم أواجه ما ينفي صدق نصيحتته؛ فحينما أعود بذاكرتي أول ما أراه من طفولتي عندما بدأت أعرف الفتيات و أتعامل معهن وأقول لنفسني لا يهمني إن كن صادقات أم كاذبات، إنني أشاركهن اللعب، مجرد لعب لن يؤذيني شيئاً كما أنه لا يمكنني أن ألعب بمفردي، تتبلور صورة تلك الزميلة التي كانت تضربني أو تدفعني مرات عدة و في كل مرة تدعي أنها لم تكن تقصد.

كانت كاذبة. نعم كانت كاذبة فإن لم تقصد مرة فلتحترس المرة التالية لكن ذلك لم يحدث، ثم إن إحساسي و حواسي كانا يؤكدان لي دوماً أنها تقصد ما تفعله. لقد كانت تدفعني بقسوة و قوة لا يمكن أن تكون عفوية. أحياناً كنت أظن أنها تحمل لي حقداً كبيراً لا أعرف أسباباً له.

و ذات مرة وصل غيظها مداه فدفعنتي حتى أصبت بكسرفي يدي، لن أنساه. حينها فقط ذكرتُ ما تفعله لأبي فما كان منه إلا أن قال:

- ألم أنهك عن الحديث أو اللعب مع الفتيات ألم أخبرك عن كذبهن مرارا؟

- أريد اللعب.. لا يمكنني اللعب وحدي.

- وهل تلعب الفتيات فقط؟!

كنت أتابع ملامح رجولته و نظرت الصارمة وأنا أخبره:

- لا أحب ألعاب الصبية لا أحب قسوتهم.

ابتسم وكأنه فهم ما أعنيه فما كنت أعني بوصفي للصبية أحدا غيره.

صمت ولم يعطني رداً ، فتركته و ذهبت إلى غرفتي و أنا أفكر في بديل عن اللعب.. لن ألعب مع البنات مرة أخرى و كذلك لن ألعب مع الأولاد ، فلعبهم لا يستهويني.

كان ما يفكر به أبي وقتها أكبر كثيراً من سني و من تفكيري ، فرغم أنني أعيش وحيدة معه إلا أنني لم أحاول أن أسأله عن أمي بسبب ذلك الضجر الذي يظهر في عينيه كلما ذكرتها. لم أكن أحب أن أغضبه قط ، لذلك كان ممكناً أن أترك أي شيء أحبه وليس اللعب فقط رغم سني الصغيرة؛ فقط لأرضيه ، دون أن يسبب ذلك أثرا كبيرا في نفسي.

مرّت سنوات التعليم الابتدائي و أنا لا أتحدث إلى أحد غير والدي ، الذي كان لي بمثابة كل العالم أبي و أمي و أخوتي و معلمي. كان كل شيء في حياتي. كنت أسمع أصدقاءه وهم يمدحون تربيته لي ، لم أشعر يوماً بافتقادي العالم حولي و افتقادي الأصدقاء عندما كان يشاركني اللعب و كأنه طفل مثلي تماماً.

لكن الإنسان لا يمضي عمره طفلاً و لو حدث ذلك لما واجه أي مشكلة في حياته؛ فبعد التحاقني بالتعليم الإعدادي بدأت أواجه

أشياء جديدة ، أشياء قد علّمني أبي عن بعضاً منها و ليس كلها..ربما لأن رقة طبعه و نفسه أشعرته بالخجل من الحديث في مثل تلك الأمور خاصة و أنني أيضا شديدة الحياء.

كنت أرى الفتيات المتصادقات في التليفزيون و أقرأ عنهن في القصص. تمنيت أن تكون لي واحدة أحدثها عن المشاعر التي اشتعلت في قلبي و ابن الجيران يتابعني من الشرفة المقابلة. أحكي لها ماذا فعلتُ و أحدهم يلاحقني مغازلًا عند عودتي من المدرسة. أقول لها رأيي فيهم ، ما يعجبني و ما لا يعجبني.. هل ينكر أحدكم أنه لم يُفكر في رأي الجنس الآخر فيه و نظرتهم إليه في مثل تلك السنّ؟

أسئلة كثيرة تشغلني و تحتاج لأجوبة؛ لكن نظرتي الوقورة لأبي تمنعني من الحديث إليه تمنعني من مجرد الاستهام و التساؤل ، لما صرت كذلك الآن؟

لما يُلح التفكير في الآخر في هذه السنّ؟ مجرد سؤال له سي طرح احتمالات و تساؤلات ربما خلّفت لديه مخاوف تجعله يتشكك في سلوكي ، و إن كانت تربيته لي تمنعه و تحميني من ذلك الشك ، فهل سيرى أن الحديث في مثل تلك الأمور أمر ذو منفعة ، ربما رآه حديث غير مُجدي و جعل مُجمل إجابته لي ابتسامة حانية.

لكني أريد التحدث؛ أحتاج إلى الحديث فيها. أحتاج إلى معرفة عواقبها و اكتشاف أسبابها و كان ذلك مستحيلا دون أن أختلط بزميلاتي بل و يكون لي صديقة منهن..

ماذا تظنون أن يقول لي أبي ، إذا أخبرته بابتسامة ساذجة أنّ ابن الجيران يشير لي كي أنتظره في الشارع ، أو ينتظرني عند خروجي من المدرسة؟ هل سيتناسى أبي كل الخبرات التي عاشها في عمر امتد إلى أربعة عقود و يسألني:

وهل يبدو وسيماً للدرجة التي تجذبك إليه؟
أو يسألني بتعقل شديد و دون أدنى اندفاع منه؛ و ما هدفك من
هذه المقابلة؟

ماذا تودين أن تعرفي عنه؟ هل يسمح لي بأن أبوح له بذلك المعترك
الذي لا يتوقف داخل رأسي من أسئلة؟
و إن كان أبي ودوداً و متفهماً للدرجة التي يمكنه بها أن يستوعب
مراهقتي و تهوري، فهل سأجد أنا من الجرأة بداخلي لكي أبوح له
بما يعتلج داخل نفسي من رغبات و مشاعر.
مستحيل أن يفعل ذلك، سيقول و هو يحاول أن يرسم ابتسامته
التي اعتدتها مع هدوئه:

- عليك تجنب الأمر كله بغلق شرفتنا عندما يكون ذلك الشاب
واقفاً في الشرفة المقابلة؛ فليس الآن هو وقت الحب
لأغلق أنا النافذة و أراقب الفتى من خلفها.
ذلك ما توقعته عندما أخفيت تلك الأمور عن أبي.

أعلم أنني في النهاية لن أفعل إلا ما يرضيه و دون أن يطلبه مني
لأنه علمني أشياء كثيرة منذ ميلادي، تلك الأشياء هي التي تتوقف
عليها قرارتي إلى اليوم. لكن حاجتي إلى فتاة مثلي، صديقة لي لا
تتوقف ولا تنتهي.

كانت المرة الأولى التي أشعر بها بتأنيب الضمير و أنا أختلط
بين الزميلات باحثة عن صديقة تناسب غرضاً ما في عقلي. أفعل ذلك
و أنا أحاول تناسي نصيحة أبي التي لا تغيب عن عقلي «لا تصادقي أو
تصدقني امرأة؛ كلهن كاذبات» والتي توقف عن تكرارها بعدما
أيضن أنني قد أخذت و اقتنعت بها تماماً.

الفصل الثاني

كانت الفتاة التي تقربتُ إليها أكثر تبدو أكبر مني في السن. كنت أحب أن أسمع عن مغامراتها مع الشباب، ورغم عدم اقتناعي بشيء مما تفعله إلا أنني كنت في غاية الإصرار على البقاء إلى جوارها و الاقتراب منها أكثر. أخبرتني أنها تعيش وحدها مع جدتها بعد وفاة والدتها و سفر والدها إلى كندا و زواجه من امرأة أخرى هناك. و كثيرا ما كانت تشكو غياب والدها الذي يأتي لزيارتها مرة كل عدة أعوام ثم يرحل من جديد. كانت تقول أن جدتها قد ترعاها جيدا في أحيان كثيرة، لكنها دائما تفتقد وجود والدها.

أخبرتني أنها تحتاج إلى أشياء أخرى غير توفير الطعام و إعداد ما تحتاجه من ملابس و تعليم، تحتاج من أبيها أن يطمئن على سعادتها لا على صحتها فقط. في كل مرة يهاتفها فيها.

كان داخل تلك الفتاة عالم جديد تماما بالنسبة لي، عالم محرّم. هذا هو ما جعلني اتقرب منها. أردت أن اكتشف عالمها دون أن أدخله و دون أن أعيشه و دون أن أتعلم في أسباب انتمائها إليه. لم أكن أتفهم حينها السبب الذي جعلها مُصرّة على الاحتفاظ بي، بفتاة ساذجة مثلي إلى جوارها دائما. كانت تحب أن أرافقها في الطريق إلى المدرسة ذهابا و إيابا. رأيتهما تتوقف مع الشباب بجرأة تدهشني. لم يكن شاب واحد يستوقفها بل كانوا عدة شبان أعمارهم مختلفة و سماتهم مختلفة و لكنها تُكرر لهم نفس الكلام تقريبا و كانوا أيضا يقولون نفس الكلام و كأنهم جميعاً قرأوه في كتاب واحد.

كانت حياة تلك الصديقة، التي لم أحدد هل أنا اخترتها أم هي التي اختارتني؛ حياة غريبة عني لم أحبها قط إلا أنني كنت أشعر وكأنها كتاب جديد مملوء بالصور و الأساطير، كتاب شيق وجذاب و ليس به إلا خيالات تتراقص أمام عيني و تلوح لي أن أظل أنظر و أتابع ليس أكثر.

لكن هل ستظل الصور مجرد خيالات في الكتاب، ألن تتحرك لها نفسي و تندفع مثلما اندفعت تلك الصديقة؟
هل سأظل أتابع باتزان؟ لكن إلى متى و حتى متى ستظل عيني تنظر و قلبي لا يتحرك؟

طلبت مني الصديقة ذات مرة أن تزورني و كنت لم أحسب لذلك بعد، فقد عرفتها لغرض و ذلك الغرض لا يتطلب زيارتنا في المنزل فوجودنا معا في المدرسة بالإضافة إلى الوقت الذي نمضيه في الذهاب و الإياب كافٍ للتحدث عن أشياء كثيرة فما جدوى زيارتها لنا في المنزل. أعلم أن ذلك ليس العذر الوحيد الذي جعلني أعتذر لها عن زيارتها لي بالمنزل و لكني كنت أعلم بوقوع كارثة لو علم والدي بوجود علاقة سطحية بيني و بين فتاة. طلبت مني رقم الهاتف أعطيتها إياه و معه عدة تحذيرات بعدم الاتصال إلا في الأوقات التي أحدها لها و ألا ترد حتى تتأكد أنني من يتحدث إليها. كنت أخشى لو تحدث لها والدي واكتشف الأمر، سيسألني لم لم أستمع لنصيحته، ثم يلومني لأنه الأكثر حبا لي و الأكثر اهتماما بي و علي أن أهتم بقوله.

(الحب قيد. نعم إنه قيد قاس بل أقسى القيود التي يمكن أن تضعها حول عنق أي إنسان. أغدقه بالاهتمام والرعاية والاحتواء و قدم له كل ما يمكن تقديمه ليصبح سعيدا و قيده بتلك الكلمة..

أنا أكثر من يحبك، أكثر من يهتم.. أنا أكثر من يُعطي، فيجب أن يُطاع. هنا تظهر القيود، القيود التي يصنعها المحبون. لكن هل تظنون معي أن الحب الحقيقي يجب أن يكون فيه منة وقيود..

و ماذا إذا وُجدت المنة والقيود هل يصبح مسمى الحب مناسب للعلاقة؟.. هذا أمر مُحير و يتكرر كثيرا بين البشر).

حصل لي على جهاز تليفون يخصني يسّر إخفاء تلك العلاقة. كنت حريصة على أن يكون بجواري معظم الوقت. تتبه أبي بسرعة إلى سلوكي، لأنني كنت أتصرف عندما أسمع جرس الهاتف و كأنني أتحدث إلى شاب سيئ دون علم أهلي..



الفصل الثالث

تغيرت نظرات أبي لي. لم تعد عيناه تتابعني بتلك النظرة المحبة الواثقة و لكنها تحولت إلى نظرة قلقة كلها لوم و شك. رغم ذلك لم يفعل شيئاً تجاه تصرفاتي و التي يمكنني أن أصفها بالمريبة، لو كنت في موقف أبي حينها.

مرّ شهران و تلك الصديقة تتقرب مني أكثر و أكثر. دعيتي ذات مرة للذهاب إلي منزلها، لكنني اعتذرت خشية التأخير الذي ربما يعطي لوالدي مبرراً جيداً للتحدث عما يدور في عقله تجاهي.

علمتني الصديقة أشياء كثيرة ما كان لي أن أعرفها من والدي، أشياء من أسرار النساء و علمتني أشياء أخرى كنت استنكرها على الزميلات لكنني عندما تعلمتها؛ لم يعد استنكاري لها ذو معنى. تعلمت من أين و كيف أحصل على مساحيق التجميل و أهمية الزينة، لم أفتتح بشيء مما نقوله و لكنني كنت دائماً في شغف للتجربة؛ التجربة التي لا يتناسب معها البيت فكنت أخفي تلك الأشياء في جيب خاص في حقيبتي المدرسية لأستخدمها وإياها عند انتهاء اليوم الدراسي.

علمتني الصديقة أن أفهم تلميحات الشباب وإشاراتهم، ذلك الشيء الذي لم أظن أو أطمح يوماً أن أصل إلى تفاصيله؛ أصبحت أجيده بمجرد نظرة أو نبرة صوت. لقد أصبحت أعني ماذا يريد أي منهم من مجرد استماعي لنبرة صوته و طريقة نظرتة حدث ذلك بعد معرفتي بها بثلاثة أشهر فقط...لقد أدخلتني الصديقة إلى عالم آخر، عالم عرفت فيما بعد أنه ليس عالمي.

(لا تخطئوا الظن بي أنا لم أصاحب شاباً أو أصافحه مجرد مصافحة. لقد علمني أبي مكارم الأخلاق و لازلت أحافظ على التزامي بها.. أعلم أن بعضكم سيقول أنني لو وجدت الفرصة لأصاحب لفعلت؛ لكن تلك ليست حقيقة فأنا لم أر رجلاً يستحق الحب غير أبي.. إن أبي يعطيني الإشباع النفسي الكافي الذي يُحصنني من الوقوع في شباك أي مستهتر حتى لو كان حبه لي يمثل قييداً في أوقات قليلة.. لكن في أوقات معينة تكون القيود حماية).

دون أسباب واضحة، أصبحت أتشكك في علاقتي بها. أصبحت أرى أن علاقتي بها شيء سيئ لي وأنّ والدي كان صادقاً فيما قال عن النساء «إنهن كاذبات». لكنني من اخترتها و اخترتها لهدف محدد و قد حققت لي ما أردتُ من معرفتها بل وأكثر..

لم أفكر في عاقبة معرفتي بفتاة بمثل خلقها و أثر ذلك على سمعتي مثلاً. لقد كنت قبل معرفتي بها أقابل كثيراً من المعاكسات التي تمر كالنسيم تمرّ بسمعي و لا ترسخ في عقلي.. لأنني لم أكن أعلم ماذا تعني و كيف يكون الرد عليها. وأقرب مثال أذكره هو فتى الشرفة المقابلة لنا الذي بدأ يتابعني منذ تفتحت بسمتي للدنيا فكانت وجنتي تتفجر احمراراً و أحاول ألا أبدي له أي اهتمام. كنت أظن به جنونا و هو يشير ناحية الشارع، لم أكن أتفهم أنه يقصدني أبداً بحركاته.

قبل معرفتي بتلك الصديقة التي أخبرتني أنّ علاقة الشباب بالفتيات لغرض التسلية ليس بها ما يعيب، طالما أنها في حدود الاحترام. إن ما تقوله مخالف لكل ما تعلمته في طفولتي و مخالف لفطرتي، لكن رؤيتي لها كل يوم واستماعي إليها و هي تتحدث عن علاقاتها بالشباب دون ممانعة من أهلها رسّخ في نفسي قواعد جيدة لاستقبال حديثها و تصديقه و ذلك ما جعلني أغير اتجاهي مع فتى

الشرفة و أوافقه أن ينتظرني عند الخروج من المدرسة.

لا يمكنني أن أضع وصفاً لشعوري و أنا أقابله للمرة الأولى.. أو تحديد إذا ما كان شعور جيد أم سيء فقد كنت كالذي يساق لفعل بغير إرادة. يساق لفعل على سبيل التجربة لا الفضول الذاتي. التجربة التي دفعه غيره إليها. تساءلت و أنا أجلس إليه ما الذي أفعله ولماذا؟ إلى أي طريق تسوقني قدماي؟ وهل صارت قدماي هي التي تسوقني أم عقلي كما كنت في الماضي؟

كانت تجلس بعيدة تراقبنا ، و تنظر لي نظرة أفهمها جيداً. و أنا أشعر بدقات قلبي تتسابق داخل صدري.. تتسابق لتبتعد عن أمر ما.. أمر مخيف.. أمر ترفضه نفسي قبل جوارحي.. أمر ستكون بدايته الآن و نهايته الله وحده هو الذي يعلمها..

قطع صمته بجملة أثارت فيّ فزعاً:

- أعرفُ والدك

نظرتُ إليه و كادت عيناى تجحظ من هول المفاجأة، فقال:

- أراه كل صباح يحتسي قهوته في شرفة منزلكم..

هدأت قليلاً عندما علمتُ أنّ تلك هي حدود معرفته به، فضي قاموس مفرداتي ما أفعله جريمة لا أحب أن يكتشفها أبي.. نعم إنها جريمة واعترف بذلك..

(اسمع هجومكم.. ولما تقترفين الجريمة و قد علمك والدك مكارم الأخلاق. اعترف مرة أخرى أنني لست أدري لما وقعت في الفخ وأنا أراه و لما ارتكبت جرمي و أنا أعلم عاقبته و عقوبته.. ربما كانت تلك طبيعة نفوس البشر كي نستغفر ونتوب.. وربما كانت تلك حقيقة النساء مثلما قال أبي «كلهن كاذبات» ربما ما أنا إلا امرأة كاذبة. لكن أبي كان يقول أنني لست ككل النساء لأنني امرأة ربّاه رجل).

صار حديث فتى الشرفه محبباً لأذني..يشيع في نفسي إحساس لم
يمكنني ساعتها أن أفسره أو أصفه و لكنه يولد داخل نفسي رغبات
جديدة لم تتفتح لي أبواب معرفتها من قبل.. رغبات تجعل دافعي
لرؤيته يكبر كل يوم عن سابقه. أحياناً كان يقول كلاماً مكرراً
سمعتة كثيرا في الأفلام أو من أصدقاء صديقتي إلا أن هناك شيئاً
جديدا هذه المرة و هو أنه يُقال لي. إحساس رائع ينتابك إذا ما شعرت
إنك مرغوب ممن حولك عامة و لكنه يكون مختلف الروعة إذا ما
كانت تلك الرغبة من جنس تفكر كثيرا في نظرتة إليك..

إحساس يتبدد تماما و يتلاشى مع أول خطوة أخطوها داخل المنزل
و شعوري بالعجز عن النظر في عيني أبي الذي وهب لي حياته و وقته و
ماله. كان يتبدد ليحل محله سؤال لم أستطع أن أجد له إجابة وحدي..
ما نهاية تلك الرغبة..ماذا يريد فتى الشرفه مني؟ هل علاقتي به
حقاً مجرد تسلية؟ هل يتسلى عاقل بشيء يقتحم عقله و وجدانه بهذه
الطريقة؟ رغم إحساسي الشديد بالخجل من والدي الذي كنت أشعر
أنه يدري بكل ما أفعله دون أن أخبره به.. لكنه أبدا لا يواجهني، لم
يطلب مني أبداً شيئاً محددًا و أصبح يكرر

- لقد أصبحت أراك تبتعدين عني..هل هناك ما يشغلك؟

كنت أجيء كل مرة بابتسامة باهتة:

- لا شيء أكثر من الدراسة..

لماذا يسأل.. ألا يجب أن يبحث و يعرف بنفسه، فإذا كان يعرف
أن النساء كاذبات فليعرف فيما تفكرن و هن في الثالثة عشر ألا يقرأ
الأدب و يترجمه؟ ألم يقابل روميو وجولييت أو يُلاحظ ضلال سكارليت
في وهم حب و هو يقرأ (ذهب مع الريح) أو يقرأ غيرهما من القصص
التي لا حكاية فيها سوى تعلق قلب امرأة برجل أو العكس، لما لم

يعرف أن النساء يمكنها أن تكون فرائس للرجال أو فرائس لأوهام حب يعشنها في الخيال فقط. ألم يكن يعلم أنني أمر بمرحلة أحلام اليقظة.

(أراكم تبدوون هجومكم ثانية.. تهاجموني و تتركوه.. أنا المخطئة وقد سعى أبي بكل إخلاص نحو تربيتي.. أنا من سعت نحو هواجسها دون تعقل.. تهاجموني جميعاً و كأنكم لا تخطئون.. كل بشر منكم مُخطئ، لذلك جعل الله الاستغفار فلا تنصبوا لي المشانق أو تُعدوا لي الأسواط و اسمعوا حكايتي للنهاية..)

أخبرتكم أن أبي كان يشعر بكل ما يحدث؛ لكن شيئاً ما كان يمنعه من الحديث معي بوضوح. كنت أتمنى أن يسألني بلسانه و يحدثني دون خجل منه.. نعم لقد كنت أشعر أنه يخجل من حديثه عمّا يدور داخلي. كان يستبدل ذلك بنظرات لؤامة تنفذ إلى قلبي دون عقلي، فاستمر على ما أنا فيه رغم عدم اقتناعي؛ فماذا أفعل غير الخطأ ما دمت لا أعرف الصواب؟

علاقتي بفتى الشرفة كانت تتطور قليلاً.. قليلاً إلا إنها كانت تتطور. لا يزال شاباً في الثانوية. هو جذاب أشعر بالسعادة و أنا إلى جواره. لاحظت أنّ بصره لا يتجه إلي على حد سواء، فسعيت إلى تجميل ما تبحث عنه عيناه و دون أن أفكر لما تبحث عيناه عن تلك الأجزاء خاصة.. بل دون أن أسأل لما يتفحص في جسدي و نحن نتحدث في كلام لا علاقة له بالجسد على الإطلاق. كنت في البداية أشعر بالحياء من نظراته لكن شيئاً فشيئاً و بعد حديثي إلى صديقتي صار هذا الأمر يعجبني؛ بل كنت أحياناً أحاول لفت انتباهه إذا لم أشعر باهتمام منه و أردد في نفسي؛ ماذا سيأخذ مني بعينيه.. لئن تنتقص نظراته مني شيئاً.. أستطيع أن أحمي نفسي لو اقترب بحاسة غير النظر.. ثم أردد داخل نفسي إن الناس لا بد أن تعرف قدر الماس حتى تشتريه ولا يعرف المرء قدر الشيء إلا إذا اقترب منه و تفحصه...

(أرى بعضكم قد فتح فاهه دهشة، يظن أنني قد عدمت الحياء و آخرون منكم أرى عيونهم تلمع حماساً لما أقول.. إنها المرة الأولى التي أشعر الانقسام بينكم حول قصتي. انتظروا ربما تلتقون مرة أخرى)

لم أكن أعني أثناء ذلك الوقت أن الماس رغم حب الناس له و جمال شكله و حتى رغم ارتفاع سعره إلا أنه لا يعدو إلا أن يكون شيء جامد بلا حياة و مال مكتنز يمكن الاستغناء عنه عند أول أزمة تقابل صاحبه. فضلاً عن ذلك، فقد كنت أتجاهل نفسي كمخلوق كرمه الخالق و أتعامل معها كما يتعامل الجزار مع الماشية في سوق البهائم لذلك لم أذكر أو أفكر في أن الجزار لن يشتري الماشية ليطعمها و يسقيها ثم يتركها تتمتع بالحياة إلى جواره فهو حتماً سيشتاق إلى ذبحها و يشتهي لحمها كي يمضغه في لذة و هنا فقط يكون قد حقق الفائدة المرجوة من شرائه للماشية. و تكون أمراً وانتهى...

لقد اشتاق فتى الشرفة أيضاً للبهيمة التي استبدلت بها نفسي و نفذ صبره عني و انقضَّ عليّ مرّة يُقبلني و كنتيجة لمقدمات طويلة لهذا الفتى معي كان ممكناً أن أسعد بقبولته ولكن ذلك لم يحدث بل كانت كالصرخة العالية التي أيقظت كل ما غرسه والدي بداخلي من قيم خلال كل السنوات الماضية.

انتفضتُ من بين يديه لأجري و كأنني أجري في صحراء لا أحد فيها غيري، لم أنتبه إلى صديقتي المزعومة و هي تلاحقني بنداؤها و لا إلى الناس الذين ينظرون إلي كالمجنونة. كنت أجري لأهرب من شيء ما و حتماً لا يهرب المرء من سعادته و لكن يهرب مما يؤذيه. لم أكن أجري لأنني أشعر أنني أمتلك العالم كله بين يديّ بل لأنني شعرت أن العالم كله ربما يسحقني تحت قدميه..



الفصل الرابع

وصلت المنزل و كان أبي لم يعد بعد من عمله. كان هذا جيداً
كي لا يلحظ ما بي من خوف وهلع.

كنت أفكر في فتى الشرفة لما لم يصبه الخوف مثلي؟ لما
أصابني الخوف وحدي من دونه؟

هل لأنني أحمل بداخلي من الأخلاق ما يمنعها عن الخطأ و هو لا
يحمل شيئاً يُشعره بمجرد الإثم تجاه ما فعل؟

أم أنه كان مستعداً وكان الأمر لي مفاجئاً؟ وكيف يفكر في
فعل ذلك لو كان لديه الحد الأدنى من المعرفة لحدود الذوق لا الأدب
أو الاحترام؟

فهو يستأذني إذا أراد أن نتشارك شراً في كوبيين منفصلين. هل
يقترح جسدي بتلك البهيمية؟

أكل هذا لأن المجتمع سيلومني في النهاية وحدي من دونه؟
سيظل هو البطل المغوار الذي استطاع بكل حنكة خداع فتاة
والإيقاع بها و أكون أنا الحمقاء الساذجة التافهة التي سقطت في
الفخ و بناءً عليه يجب أن تقع عليها عقوبة رادعة من ذلك المجتمع
الشريف العفيف المتدين الذي يطبق العدالة في كل شيء. المجتمع
الذي يرفض العدالة دائماً مع الضعيف و أضعف ما فيه امرأة أصيبت
في عرضها.

(لماذا تُشبحون بوجهكم عني و تودون لو تتركوني و ترحلون؟
ألستم من إذا زنا الرجل قبلتم خطأه و قلتم سیتزوج و ينتهي، و إذا

اغتصبت الفتاة صارت عاراً على قومها وربما قتلوها وإن لم يفعلوا
فيُخادعون لإخفاء ما حدث لها. فالزيف لا يُعالج إلا بالزيف. ويظن
ذلك الذي ظلمها بحماقته، أنه ناج.. هل ينجو ظالم؟)

هل تعلمون لم هربت من قبّلت، بل لم اقصعر بدني خوفاً بمجرد
أن شعرت بها، لأنني كنت في الثالثة عشر و كنت أعلم أن هذه
القُبلة هي بداية شيء آخر أكبر وأعمق ينتهي بجنين يتحرك خلف
الأحشاء.

لكم أن تعرفوا من أين لي بتلك المعلومات فأنا طفلة وحيدة تعيش
مع والدها أستاذ الأدب الانجليزي والذي كرّس حياته من أجلها بعد
انفصاله عن أمها.. علمني القراءة و عمري ثلاث سنوات كنت أقرأ
باللغتين و أنا في السابعة بدأت في قراءة الأدب العالمي و أنا في
العاشرة.. كان أبي يُدرك جيداً حجم إدراكي للأمور لذلك كان
يشعر بالخجل من الحديث معي كأنثى خاصة و أنه يتفهم اندفاعي
و تهوري كمراهقة.. و رغم كل ما أعرفه لم تتوقف بداخلي رغبتني
و اندفاعي نحو التجربة و الخوض فيها، لكن تلك المعرفة هي التي
دفعتني إلى التوقف نهائياً لحظة إحساسي بالخطر. المعرفة هي ما
احتميت به حين كدت أنجرف لكارثة أكبر.



الفصل الخامس

احتمالات كثيرة دارت في ذهني و أفكار كثيرة تزاومت في عقلي.. كدت أجن.. أردت أن أصرخ وأن أرتمي في أحضان أبي وأطلب منه الحماية من خطر يلاحقني لكنني لم أستطع أن أنظر إليه عندما فتح باب الغرفة و سألني عن سبب جلوسي بمفردي في غرفة مظلمة. أحسست برغبة في الاختفاء عن عينيه ورغبة شديدة في أن يضمني إليه. لا تزال تساؤلاته تطل علي من نظراته كسهام قاتله و رغم ذلك لا يتكلم.. ربما لأنه لا يدري ما يقول. ربما لأن قلبه يرفض تصديق مخالفتي له و لما علمني من مبادئ. لا يستطيع أن يُصدق أنني أهدرت ثلاثة عشر عاما قضاها في تربيته.. لكنني أبدا.. لن أضيع عمره الذي سخره لأجلي و لن أنسى كلمة واحدة مما علمني إياها مهما طال بي الحياة.

عند المساء حضر أبي إلى غرفتي مرة ثانية. كنت لا أزال أجلس على حائتي السابقة، النوافذ مغلقة و الغرفة مظلمة و أنا أجلس مستيقظة فوق سريري. أضاء الغرفة و اتجه نحو النافذة و هو يقول - أعلم أنك تمرين بمشكلة.. ربما تكون صعبة و لكنني أثق أنك قادرة على حلها فلو كنت في حاجة لمساعدتي لسردتها علي.

لم أنطق بكلمة. بل لم أستطع الكلام لأن حلقي كان يؤلمني نتيجة لبكائي الصامت طوال الساعات السابقة. تابع أبي قائلاً بعد أن فتح الشرفة:

لَمْ لا نجلس سوياً بعض الوقت، ربما شعرت ببعض التحسن. ونظر لي بنظرة شعرت منها أنه يعرف كل شيء عن الشرفة و وقوفي بها و

مواعدتي مع فتى الشرفة المقابلة كل شيء مرّ أمامي و كأن والدي
يعيد علي شريط سينمائي لكل ما حدث بابتسامته هذه..

استجمعت قوتي و قلت:

- بابا.. أشعر بالبرد.. هل يمكن أن تغلق الشرفة؟

- إنَّ البرد الذي تشعرون به ليس نتيجة هواء الشرفة و لكنك لم
تأكلي أي طعام منذ عودتك من المدرسة.

كان أبي يحاول أن يشملني بحنانه و هو يحدثني، رغم علمه أنّه
قد يكون خلف خوفي كارثة، لكن هل كان يعلم حدودها، لذلك
كان محتفظاً بهدوئه.

حاولت أن أرسم ابتسامة على شفتي و أنا أقول:

- وهل يمكنني أن أتناول طعامي الآن؟

و علق وهو يتوجه للباب.. " سنتناول الطعام في الشرفة ".

وقتها، كنت أتمنى أن تختفي تلك الشرفة و كل الشرفات التي
في المنزل بل كل الشرفات التي في العالم و أوشكت أن أصف
بلفظ سيء ذلك الذي ابتدع وجود الشرفات في المنازل. لم أحاول أن
أنظر تجاهها و أنا أغادر الغرفة لأشارك والدي في إعداد الطعام،
لكنه طلب مني أن أذهب لأضع كرسي آخر بالشرفة ثم أعود إليه.
حملت الكرسي و اتجهت به نحو باب الشرفة و أنا لا أرفع نظري
عنها حتى لا أراه..

إحساس شديد بالخزي داخل نفسي مما فعلت و إحساس آخر
بالمقت تجاه ذلك الفتى.. نعم، كنت أشعر وقتها أنني أكرهه أكثر
من كرهني لأي شخص أو شيء في حياتي.. لأنه أوشك أن يفقدني
إحساسي بلذة الطهارة بعد فعلته. جعلني لا أطيق أن أرى نفسي
في المرأة، أشياء كثيرة انتزعها من كبريائي مع قبّلتها و أهمها

إحساسي بالكرامة.

(ربما أن بعضكم قد استحسنني في البداية لكن الآن فقد
فقدت نصف ذلك الاستحسان لمجرد أنني وثقت في أحد الرجال؛
فاغتصب مني وأكرر أنه اغتصبها.. من فتاة في الثالثة عشر..
اغتصب قُبلة... لكنني أذكركم أن الله جعل الخطأ و جعل التوبة و
ما حدث منه كان بداية رجوعي عن الطريق التي ربما ضعتُ فيها)



الفصل السادس

حملت الكرسي واتجهت نحو الشرفة وبحركة لا إرادية رفعت عيني نحو الشرفة المقابلة لأشعر برعشة تسري في جسدي و كأنني تعرضت لماس كهربائي. إنه ينتظرنى منذ وقت طويل.. حاولت تجاهله لكنني لم أستطع ونظرت إليه نظرة جامدة بلا معنى.. ثم تركته دون رد و عدت إلى والدي في المطبخ. كان يُعد لنا شرائح لحم و خبز و بعض الخضروات الطازجة. حملت معه أطباق الطعام و اتجهنا إلى الشرفة و الفتى لا يزال واقفاً. نظر إليه والدي نظرة متفحصة ثم نظر لي و ابتسم، ثم انصرف فتى الشرفة إلى حيث يختفي عن نظرنا.. ابتهامة أبي كانت تمثل لي لغزاً كبيراً لا أعرف له حل.

حاولت أن أتناسى كل ذلك بعد اختفاء فتى الشرفة داخل بيته.. حاولت أن أتناسى كل ما مرَّ بي ذلك اليوم و قررت أن يكون صفحة منتهية في حياتي.. سأغلقها و أقطع علاقتي بصديقتي المزعومة و أتجاهل فتى الشرفة و أعود إلى حياتي السابقة قبل معرفتهم.

كنت أحب مداعبة والدي بالحديث فقد كان يمضي أغلب وقته معي و أعلم أنه لا يوجد في حياته من هو أحب إليه مني، فقلت:

بابا.. هل لي أن أعلم سر ابتهامتك بعدما نظرت إلى ذلك الشاب؟ هل تعرفه؟

و بدأ أبي اجابته بابهامة أخرى و كأنه حقق نصراً بسؤالي له، ثم قال:

لقد تذكرت نفسي و أنا في مثل عمره، كنت كثير الوقوف في الشرفة متظاهراً بالمذاكرة و ما كان وقوفي ذلك إلا لمتابعة ابنة

الجيران عندما تخرج إليها ، سألته:

- ولماذا كنت تتابعها؟

فتهد بعشق وقال:

- كنت أظن أنني أحبها

- تظن...؟

- نعم مجرد ظن.. لأن الحب بالدرجة الأولى هو إحساس بالمسؤولية تجاه من نُحب.. نهتم لسعادته و نجاهه و كل أموره؛ أما أنا فلم أشعر بذلك قط تجاهها.

كانت تراودني رغبة في الاقتراب من فتاة.. مجرد اصطحابي لفتاة أمام أقراني كان يزيد من إحساسي برجولتي التي كانت في بداية تكوينها. كنت أريد التحدث إليها و اكتشاف عالم جديد. أردت أن أباهي بأني أواعد أجمل فتاة في الحي. لم أكن أفكر في أنني أشغلها عن دروسها ، أو أنني أدفعها للكذب بعلاقتي معها.. إن كانت صالحة فأقل أذى سيصيبها هو تأنيب الضمير و عذاب النفس جراء ذلك الكذب. وإن كانت سهلة فالأذى والخسارة سيكونان أكبر و قد يكونا غير قابلان للإصلاح لأنها لن تدركهما إلا بعد فوات الأوان.

سكت قليلا ثم تابع:

- لم أفكر و لو مرة في نهاية لأمري معها ، كانت بؤرة تركيزي أن أقتعها بأنني فتى رائع.. لم أكن أهتم لشيء فيها غير جمالها.. أقصد جمال شكلها.

كان يصف ما يحدث بيني و بين فتى الشرفة و كأنه كان رفيق جلستنا. أيقنت وأنا أسمع أنه يعلمني دون أن يعلمني بذلك. أحسست أنه يملك رسماً تفصيلياً لكل أفكارى، ليس فقط لي، بل لفتى

الشرفة أيضاً..

كان الأجل من أبي أنه لم يدعي المثالية في مراهقته وأنه تخطاها من دون أخطاء. إنه يقول لي إنه أخطأ أيضاً وهو في ذات السن ولكنه لم ينجرف خلف خطأه حتى يصير خطيئة.. كأنه كان يقول كلنا مخطئ فتحدثي واطلبي النصيحة ممن تثقين في محبته. فجأة وجدت نفسي أعود لاندفاعي القديم في إلقاء التساؤلات عليه، فقلت:

- لكن لماذا في تلك السن دون غيرها تراودنا هذه الرغبة.. لماذا؟
- في تلك المرحلة يفوق النمو الجسدي نمو العقل والخبرات بمراحل كبيرة.. فنندفع نحو التجربة دون تعقل لكي نُحصّل من الخبرات ما يجعلنا نبدو مثل الكبار. وذلك يحدث غالباً بسبب التغيير الهرموني الذي يعتبره الشخص أشبه بطفرة مفاجئة تحدث لجسده بل لكل شيء في حياته.

سكت قليلاً ثم قال:

- كان من الأفضل أن تلجئي لي منذ البداية. ما كان عليكِ الكتمان.

- هل كنت تلاحظ كل شيء؟

- ألم تفهمي أنني الأخطأ؟

- كنت أفهم لكنني لم أدرك ما يجب عليّ فعله..

نظر إلى الشرفة و تابعني قائلاً و الابتسامة لا تفارق ملامحه:

- ابن الجيران، ربما يكون جيداً، لكن الآن ليس الوقت الذي يجب أن نختار فيه..

و أشار إلى رأسي ثم تابع:

- مازالت هنا ثورات لم تهدأ.. وأفكار لم تستقر.. أمامكِ ربما عشر سنوات حتى تفكرين جدياً بتلك الأمور.

و كالعادة اندفع قائلة:

- عشر سنوات.. هذا كثير

نظر إلي وهو يحاول التظاهر بالجدية

- بنت !

كنت أثق أنّ والدي هو أكثر من يحبني، لذا فقد كان حديثه يرسخ في كل من قلبي و عقلي دون أي عائق. مسح حديثه معي كثيراً من الآلام التي أصابتني. و بفضل طفلة سألته لأعرف المزيد منه فسألته:

- و ماذا حدث مع بنت الجيران بعد ذلك؟

بابتسامته الودودة أجابني:

- كان علي أن أجمع جهودي لتحقيق شيء هام في حياتي حينها؛

و إن لم يكن هناك أمر هام في حياتي كنت لن أرتبط بها

- لماذا؟

- لأنني كإنسان ميزه الله بالعقل.. يجب أن يُحدد معيار تقدم علاقته مع أي شخص بالعقل قبل أي شيء آخر. و لأن ميزة الإنسان بعقله فإن من يستخدم عقله أفضل هو الإنسان الأفضل؛ ذلك الذي يعقل تصرفاته و أخلاقه مع غيره. و الحب الذي يدوم و ينجح هو ذلك الحب العاقل المتزن الذي لا تدفعه غريزة و لا تسبقه رغبة و إنما تراحم و احترام. و لو وضعنا معيار آخر مستثيين العقل للتقييم خرجنا عن القيمة المتلى لنا كبشر و صرنا أشبه بأي مخلوق آخر تحكمه الغريزة.

بعد سماعي لأبي قررت أن أكون كما أراد الله لي.. قررت أن أكون إنساناً.

و يبدو أن انشغالي بأمر فتى الشرفه لم ينته بعد ، فكانت أسئلة كثيرة تُلح في عقلي حول فتاة أبي و كيف كان يفكر بها و كيف انتهى أمره معها.

كانت رغبة مني في قراءة ما يدور في عقول ذاك الجنس الذي اعتبرته غريباً وقتها و كيف يفكرون بنا في أعماقهم. و هل يخبرني ب لم الحقيقة مثل أبي؟!

كررت أسئلة عديدة عليه حتى أخبرني:

- لم تكن اختيارا صحيحا فقد اخترتها بمعايير غير إنسانية...
أتفهمين؟

أجبتة باندفاع و عجلة:

- أتفهم بابا.. الإنسانية هي الشعور بالآخر. أن ن فكر فيما يحقق السعادة للآخر في نفس الوقت الذي ن فكر فيه فيما يسعدنا.

طلبت من والدي أن يصحبني في اليوم التالي لنزهة و أنني ليست لدي رغبة في الذهاب إلى المدرسة في الغد..كنت كمن أفاق لتوه من صدمة كبيرة و شعر بحاجة للراحة بعد عودته للواقع. استجاب و لم يناقشني في أسباب.

قضيت يوماً كاملاً أتتزه مع والدي في أرجاء المدينة. يوماً واحداً معه كان كافياً لاسترجاع كل ما كدت أفقده من تماسكي. يوم فقط معه يمكنه أن يعود بي من طريق كان هو بعينه طريق الندامة إلى طريق مستقيم تحفظني من المهالك.. يوماً واحداً أدركني فيه في تمام اللحظة التي احتجته فيها..كل البشر رائعون إذا تدخلوا في الوقت المناسب دون تأخر أو تبكير.

(ذلك فقط ما يحفظكم داخل قلوبنا؛ أيها الآباء، أن تكونوا
حاضرون في الوقت المناسب..

تبررون الابتعاد بالانشغال وتعتقدون أن الانشغال عنا لأجلنا.
اعذروني إذا فضحت نواياكم، أنتم مشغولون بطموحكم وأهدافكم..
ليس بنا أبداً، حينما تشغلون لدرجة تضيعنا. نحن بحاجة لسمعكم
وقلوبكم أكثر كثيراً مما تسعون إليه معتقدين أنه لأجلنا)



الفصل السابع

كأنني كبرت عدة أعوام لا بضعة أيام، لم يعد تفوقي الدراسي هو هدفي الأول.. صار لي هدف آخر، هدف كان يجب أن أتعلّم كيف أنجزه بجانب أي هدف آخر و تكون له الأولوية قبل أي شيء؛ إنه السعادة و الرضا الداخلي. ذلك الشعور الذي فقدته منذ معرفتي بصديقتي المزعومة. تحدّثت إلى والدي أخبرته أنني أريده أن يساعديني كي أحافظ على ذلك.

رغم شعوري بدهشته من طلبي إلا أنه استجاب قائلاً:

- إذا وثقت في مساعدتي لك ستجدينها على الدوام. لا يمكنني أن أتخلى عنك و أنت تتقين بي. أمّا إذا اختفت الثقة فحتى إلزامي لك بالصواب لن يكفي لحمايتك.

بعد انتهاء الإجازة عدت إلى المدرسة معتقدة بأن كل شيء كان يُعكر صفاء نفسي، انتهى و أنني عدت لنفسي التي أحبها و ترضيني من جديد؛ لكن ما لبثت أن رأيت صديقتي المزعومة حتى أوشك الغضب أن يلحق بعقلي. تلومني لأنني لم أرد على اتصالها بي خلال الأيام الماضية. أخبرتها أننا رفعنا الهاتف منعاً للإزعاج. أظهرت تبرمها مني ثم عادت لتقول:

- وهل توقفت عن تهوية منزلكم أيضاً منعاً للإزعاج. كنت أفهم ما تقصده فقلت لها، و قد تعمدت أن تعرف أنّ هذه العلاقة انتهت بالنسبة لي:

- نعم.

فقلت و هي تحاول المزاح:

- رفعت الهاتف منعا لإزعاجك و سبباً لإزعاجي أنا

- ماذا؟!

- إن فتى الشرفة لم يكف عن الاتصال بي يسأل عنك.. هل

أغضبك في شيء؟

- ألم يخبرك بشيء؟

- نعم.. كان يبدو حزيناً وربما نادماً لأمر ما.. ماذا حدث؟

- لقد انتهت علاقتي به

أحسست أن الأمر راق لها و بدلاً من أن تسعى لمعرفة أسباب ذلك

أو تقول فيه خيراً كما كانت تفعل سابقاً ، قالت:

- أحسنت في قرارك..لم يرُقني منذ البداية فلديه كثير من

السذاجة و إن حاول إخفائها..

- سذاجة..؟!

- هل تعلمين ما عليك فعله كي تنسيه مطلقاً.

شعرت برغبة في الاسترسال معها في الحديث ، إذ أنها مازالت

تقول أشياء لم أعرفها بعد. إنها لم تكشف لي عن كل أسرارها

بعد ، مازال هناك الكثير خفياً. إنها نفس الرغبة التي دفعتني في

البداية إلى التعرف عليها. أفتعت نفسي أنه لا ضرر من الحديث معها

و كله كلام.. مجرد كلام.

سألتها:

- هل مررت بموقف مشابه من قبل؟

- نعم.. لقد مللت أحد أصدقائي حيث أنه لم يعد يجد جديد

في علاقتنا.. صار مكرراً لدرجة الملل و لم أعد أشعر بأي نوع من

المغامرة و أنا معه.. عندما أخبرته أن نبتعد غضب و قال أنه يحبني و طلب مني الزواج.

كان هذا أكثر مما توقعت سماعه زواج ، كانت تُحدثني في البداية أن الأمر لا يزيد عن مجرد تسلية.. وها هي الآن تتحدث في زواج وهي لم تتم الرابعة عشر من عمرها.. أي شيء تبحث عنه في الزواج ، فتاة في مثل عمرها. لم أكن أعرف ما يجب أن أقول لها ، لكن رغما عني خرج السؤال استنكاريا مني:

- تتزوجا..! أنت في الرابعة عشر

- أعلم أن القانون لن يسمح.. لذلك فقد طلب مني أن نتزوج عرفيا حتى نُتم السن القانوني..

- تقصدين أنه أيضا لم يتم السن القانوني..

- نعم.. لكن لا تشغلي بالك فقد رفضت. لقد مللته صديقا ، فهل أتحمله زوجًا.

- تقصدين أنه إن لم تملّيه ربما فكرت بالأمر بصورة أخرى..

- لست أدري إن كان أحدهم يستحق.. أم لا

لأول مرة أراها حزينة أو أستشعر حزناً داخلها تحاول أن تخفيه و كأن بداخلها كسراً ما تحاول جبره بتلك العلاقات المبتورة التي تنتقل بينها؛ لكن مالي أنا بحزنها فقد تركها والدها وسافر للعمل منذ كانت طفلة. عاشت مع جدتها التي أتقنت رعايتها لكنها أبداً لم تدرك كيف تربي طفلة وحيدة بدون إخوة أو والدين. لم تدرك كيف ترى طفلة والدها رحل من أجل طموحه أو من أجل جمع المال ثم أونس بزوجة هناك فتتاسى طفلته من الزوجة الأولى.

لم تجد من ينجح في اقناعها أن ما يفعله كان من أجلها و لم يكن إهمالاً لها.. لم تجد من يشفي ذلك الخذلان الذي أصابها وهي

ترسل لوالدها عبر البريد الإلكتروني أن يعود لأنها تشتاق إليه ، لم تجد من يشعر بأفراحها و أتراحها. ربما تهرب مما يؤديها بالتمرد على كل ما هو مقبول من مجتمع رفضها الأقربون فيه.
لكن أنا فلا حاجة لي بكل ما تبحث عنه.. إن لي أبا يغنيني عن الكون.

تركت أفكاري و سألتها:

- و ماذا فعلت لتتخلصي منه؟

- تعرفت على غيره..فلا يمكنني أن أعيش بغير صديق

- لماذا؟

- كيف تسألين و قد مررت بتجربة.. ألا تتمنين أن تجدي اليوم قبل الغد البديل عن فتى الشرفة.. لئسمعك أحلى الكلمات. يداعبك. يُقبلك و يضمك إلى أحضانه. لا يمكن لفتاة أن تتعود غياب رجل بعدما اعتادت حضوره.

كنت أسمع كلماتها و قد انتابتنني حالة من الذهول لم أكن أعرف كيف أقاومها فما أسمعه منها أقسى كثيرا مما قرأت في الكتب. فهي على الأقل مثال حي و كيان أعرفه.

وكلما أضافت كلمة شعرت أن جسدي ينكمش أكثر فأكثر حتى شعرت أنه سيختفي ، فقلت بغضب شديد:

- إنك تلقين بنفسك إلى التهلكة ، ماذا لو انتهت تلك القبل و الأحضان إلى طفل يتحرك داخلك.. ماذا لو تحولت لحظات التسلية و الاستمتاع كما تزعمين إلى أمر جاد يتوقف عليه مصيرك في الحياة.. ألم تفكري في ذلك؟

- إنني سيدة الموقف دائما.. أعرف متى أبدأ و متى أتوقف.. لا

يمكن أن أقع أبدا في الخطيئة. إنَّ من تقع فيها هي فتاة ساذجة
استطردتْ قائلة:

- لماذا تغضبين لهذه الدرجة؟ ألم تحدث نفس الأشياء بينك وبين
فتى الشرفة؛ وإلا فلما كنتما تلتقيان في أماكن خلوية بعيدة عن
الأنظار إلا من أصحاب نفس الهدف منها. إنها رغبات تُخالط النفوس
وإنها طبيعة من تكويننا.. ليس في الأمر مشكلة طالما لم يصل
لجريمة أو إنجاب سفاح.

كانت تدافع عن موقفها بكل إصرار وثقة ودون أدنى شعور
بالذنب تجاه ما تفعله. يبدو أنّ كلمة الفضيلة قد اختفت تماما من
الكلمات التي تعلمتها منذ ولادتها.

عدت إلى المنزل في حال أسوأ مما كنت عليه آخر يوم قبل
إجازتي، كان مزيج من الحزن والذهول والألم يُخيم علي.. شعرت و
كأن عقلي توقف تماما.. فليست الصديقة وحدها التي تفعل ذلك،
إنهم كثيرون. شعرت و كأنني وحدي التي لا تضاهي المجتمع. هل
كل ما علمني إياه أبي طوال تلك السنوات لا يعني شيئا في حياة
اليوم.

قابلني فتى الشرفة في الشارع عند العودة و أخذ يتحدث إلي
و صوته في أذني يشبه إعصار يجتاح نفسي من الواقع إلى سراب
بعيد. لم أستطع أن أرد بكلمة، فأنا عاقل و يجب أن أفكر قبل أن
أصرف و قد فكرت في عدم العودة إليه، كذلك يجب أن أفكر
أيضا لو سأعود إليه. أنا إنسان..و يجب أن أحافظ على إنسانيتي..
لكنني أصبحت وقتها إنسان مشتت. هل أنا على صواب أم الضالّ
الوحيد بين الآخرين؟

عندما فتحت باب البيت وجدت أبي قد عاد مبكراً من عمله. عجزت حنجرتي أن تصدر صوتاً كي أحييه وتوجهت إلى غرفتي، فتحت كل منافذ الضوء بها. أردت أن يعطي ضوء الشمس وهواء الطبيعة القوة لعقلي كي يعاود التفكير ويعطي حنجرتي قوة لأستطيع الحديث؛ لكن ذلك لم يحدث، لم أستطع أن أفكر أو أن أتحدث. أحسست بغضب شديد قذفت بكتاب نحو الجدار وصرخت بصوت عالي جاء على أثره أبي فرغاً يتساءل عما بي والقلق يفيض من عينيه لكنني لم أستطع الحديث فبكيت و بكيت أكثر وهو يضمني إليه محاولاً أن يطمئنني حتى هدأت.



الفصل الثامن

رويت لوالدي كل ما حدث، ليس في ذلك اليوم فحسب بل منذ فكرت في التعرف على صديقة و ذكرت له الأسباب التي دفعتني لذلك. تغيرت انفعالاته تماما و لم يتكلم و لاحظت أن حالة الحزن التي كانت تصيبه كلما سألت عن أمي تواجهه مجددا. لا يمكنه إخفائها عني. بعد صمت طويل قال:

- لقد أخبرتك ألا تصادقي أو تصدقي امرأة لأن كلهن كاذبات

- أبي.. إنني امرأة و لا أحب الكذب، بل لم أكذب قط

- لأنني من رباك و علمك.. أنت امرأة علمها رجل فكيف تكتسبين

خصال النساء

- النساء لا تربي النساء فقط؛ إنهن يربين الرجال أيضا

- لكن الرجل قوي.. لا يكذب.. أما المرأة فضعيفة؛ و لولا ضعف

زميلتك تلك و عدم قدرتها على التخلص من علاقاتها المذمومة مع

الرجال لما حاولت الإيقاع بك في نفس الفخ.. كلهن خسيسات فيدلا

من أن يحاولن التخلص من عيوبهن يسعين لإصابة الجميع بها حتى

يتساوى الجميع في الرذيلة.

سكت أبي برهة ثم قال بمرارة شديدة:

- تماما مثلها، كلهن يفعلن كما فعلت هي منذ سنوات إنها

وكلهن يتصفن بالخسة؛ صفة ملتصقة بهن أينما كانوا.

كنت منشغلة في ملامحه التي تحولت لبؤس شديد و هو يذكر

كلماته الأخيرة. لم أسأله من يقصد به (هي) و إن كان أغلب الظن

يرمي إلى أنها أُمي. تركني وحدي بعدما أتمّ حديثه. شعرت أنني جددت جراحاً أو شكت أن تختفي من نفسه.. حزنت جدا لذلك. لا أحب أن أكون سبياً في حزنه و لو بقدر ضئيل. لقد أخبرته الحقيقة كاملة لأنني أعلم أنه لن يصدّقني النصيحة مثله.

(تراجعوا عن نظرة الاتهام التي تملأ عيونكم.. نعم لقد نصحني من البداية و لم استمع.. لكنني لم أخفي عليه لأنني أريد أن أعصاه.. لقد خشيت غضبه، غضبه الذي لم أفهم دافعه الحقيقي إلا مؤخراً.. كان عليه و عليكم أيضا أن تتفهموا اندفاع مراهق.. لم نعد بذات القيود التي كانت تحكمكم صارت الحركة خلف الرغبة والغريزة أيسر و أسهل.. إننا لا نخاف منكم فقط. إننا في أحيان كثيرة نخاف عليكم من مواجهة صورتنا الحقيقية المشوهة و التي تخالف تماما الصورة التي تسعون طوال حياتكم لتكوينها لنا.. أنتم عليكم جزء من الجريمة، ليس نحن فقط فأنتم تخشون مواجهة الواقع، تماما كما نخشى نحن مواجهتكم)

مضى أكثر من ساعة و كلانا يجلس في غرفته منفصلا، ألمني ما أصابه مني فذهبت إليه معذرة، فقال والحزن لم يختفي من ملامحه و لا من نبرة صوته الخافتة:

- لا عليك.. لست أنتِ السبب في أحزاني.

لاحظت أنفه النازف و هو يحاول إخفائه عني، طلبت منه زيارة الطبيب للاطمئنان عليه. ذهبنا سويا لأكتشف أن والدي مصابا بارتفاع ضغط الدم و هذا ما جعل أنفه ينزف عندما غضب. قال الطبيب أن نزيف الأنف كان نتيجة انفجار شعيرات دموية دقيقة بها عند ارتفاع الضغط و أشار الطبيب إلي قائلاً:

- من الآن فلنقل العناد و الجدال من أجل صحة بابا

لاشك أنه يحمل في قلبه أحزانا أخرى جعلته يعاني و ليس موقفي
مع الصديقة فقط. أحزان جعلته يكره كل النساء و كنت أشعر
أن أمي هي السبب خلف أحزان أبي؛ لكن لماذا؟ لا أستطيع أن
أذكرها أمامه. و إذا تملكني الفضول و فعلت كان يقول:
- إنها ستعود إذا شعرت بحاجتها إليك.

اقتنعت أن الفتاة كانت تريد أن تشككني في كل ما تربيت
عليه ثم تلقي بي إلى قاع الرذيلة. إنها سيئة و تسبب قربي منها في
المشاكل لي و لأهم إنسان في حياتي. ابتعدت عنها و قررت ألا
أصدق أو أصادق امرأة بعد ذلك اليوم فكلهن كاذبات. الغريب أنني
لم أعود بأي ذنب على فتى الشرفة و الذي كان شريكاً في كل
شيء.



الفصل التاسع

في صباح اليوم التالي كانت الأمور قد هدأت نوعاً ما. كان أبي جالساً في غرفته يقلب ذكريات لا أعرفها عنه، ذكريات لم يشأ أن يخبرني عنها. تلك الذكريات ربما هي التي دفعته إلى كره النساء و يعلمني أن أكرههن.

كلما مرَّ بي الزمن و كبرت أكثر ازدادت رغبتني في اقتحام تلك الذكريات و معرفتها و لكنني أتراجع كي لا أتسبب له في الحزن. اعتذرت له عن مناقشتي معه بتلك الحدة، فهو أبي و ليس أبي فقط بل هو كل الناس في حياتي.

لم يشأ أبي أن يتحدث بالمزيد فقبلني في جيبني و قال:

- تعلمين أنني لا أريد لكِ إلا كل خير..

ابتسمت و الاسئلة تتعارك في عقلي و قلت:

- اعلم بابا.. سامحني لحدتي.. سامحني بابا.

في اليوم التالي رافقني أبي إلي المدرسة ليطلب نقلي إلى فصل آخر غير الذي أدرس فيه مع الصديقة المزعومة و عاد عند الظهيرة، ليصحبني إلى المنزل، لكنه ذهب إلى مكان آخر؛ لقد قصد المكتبة معللاً ذلك أنني لم أشتري كتباً جديدة منذ فترة طويلة و أنه يخشى أن أصاب بالملل لعدم تقلمي بين الكتب بين الحين و الآخر.

لم تكن عادة أبي أن يصحبني لاختيار ما أقرأه بنفسني و رغم ذلك فقد كنت سعيدة لوجودي بين كل تلك الكتب الكثيرة

والتي يمكنني أن أجد فيها أجوبة للأسئلة الكثيرة التي تدور في رأسي.

اخترت أكثر من عشرين كتابا تختلف موضوعاتها بين فهم النفس و تطوير الشخصية و بعض الروايات و بعض الكتب العلمية التي توضح وتشرح وظائف و تطور أعضاء جسم الإنسان. و للمرة الأولى أرى نفسي تميل لقراءة الشعر العاطفي للشعراء المعاصرين فاشترت ديوانين لشاعرين مختلفين، و كنت لا أحب الشعر قبل ذلك.

عدت إلى المنزل في غاية السعادة إلا أن مفاجآت والدي كانت لم تنته بعد. جلس يحدثني عن أحلامي في المستقبل و العلم الذي أحب أن أدرسه أكثر.. فذكرت له أنني أحب اللغات والرياضيات كما أنني أحب التاريخ؛ فأخبرني بأنه لا يمكنني دراسة كل تلك العلوم بتفاصيلها مع الجامعة.

فعلقت بإصرار أنني أريد أن أدرس الجميع، فاقترح أن أدرس اللغات دراسة حرة و أبدأ بقراءة التاريخ و لتكن الرياضيات هي مجال تخصصي الجامعي.

إحساس رائع كان يشملني و هو يمسخ عن قلبي آثار تجربتي مع الصديقة المزعومة وفتى الشرفة و يعود بحياتي إلى مسار آخر يرضيني و يغمرني بالسعادة. ليت كل الآباء كأبي، يذكر ضعفه و أخطائه في صغره ليصححها مع أبنائه في كبره. ليس بالقهر و العنف و لكن بالطريقة التي ودَّ لو فعلها معه ذويه. يعلم أبي أنني منه و أن ما كان يرضيه و هو في عمري سيرضيني في نفس العمر.

(لحظة.. أراكم تتوقعون نهاية الحكاية و تستعدون للذهاب.. انتظروا فما زالت الحكاية لم تنتهي.. وما نهاها معي كذلك إلا

حكمة ورحمة أب.. هناك صديقة أخرى تسلك نفس الطريق، أبوها مشغول تركها ورحل؛ وإن كان يسعى في الدنيا لأجلها فقد تركها وحدها لا تعرف كيف تواجه الدنيا.. وهناك أيضا فتى آخر، كاد أن يتوه هل تعلمون أنه لولا وجود رجل فاسق ورجل لا يغار محارمه، لما كانت هناك امرأة ساقطة.. مازال في القصة ما تسمعه



الفصل العاشر

يبدو أن فتى الشرفة لم ينسى أمري، لقد استمر يراقبني من الشرفة حتى نهاية العام الدراسي، كان يُلقي التحية كلما رأيته كنت أرددها، ثم يجلس طويلاً فلا ينصرف حتى أنصرف أنا. بدأت الإجازة واتجهت للدراسة في معهد اللغات فوجدته زميلاً لي هناك رغم أنني أصغره ولن أقول أنني كنت أخضع رغبتني لعقلي بالمطلق ولا أميل فلا أنشغل به أبداً. لا، كنت أحياناً أسعد بنظراته التي تلاحقني مع كل كلمة أنطق بها في المحاضرة. كنت سعيدة بوجوده بنفس الفصل الذي أدرس به، لكنني لم أكن أبداً أود العودة إلى الطريق القديم التي كدت أن أسلكها معه.

ذات مرة عدنا سوياً مصادفة، ركبنا نفس الحافلة أثناء العودة و في الطريق اعتذر لي عن سوء تصرفه معي وأخبرني أنه يحبني ولم يقصد إهانتني..!؟ وأنه يحلم بذلك اليوم الذي أكون فيه زوجة له.

تذكرت حديث والدي و سألته بجديّة :- هل أنت انسان؟

اعتقد أنه لم يتبين ما أقول وسأل :- ماذا؟

فقلت :- لا تتشكك في سمعك لقد تصرفت معي مرة كشيطان و فكرت برغبتك وحدها في إقامة علاقة معي وهذا ما لم أحبه. الإنسان تميز بالعقل لكي يتحكم برغباته و أنت لم تفعل ذلك معي.. لاحظت الغضب في ملامحه قبل أن يقول :- هل هذا رفض أم

توبيخ؟

حقيقة لا أحب إهانة أحد عامة..و لم أحب أهانتته هو خاصة،

فسارعت قائلة:

- لا هذا ولا ذاك، إنها مجرد وجهة نظر.. أعبّر عن رأيي في موقف
اعتقدت أنه يخصني..

و تابعت، بسؤال آخر سريعاً:- في أي كلية ستدرس؟
هنا تحولت ملامح الغضب لديه إلي فخر و سعادة، دون أن تخلو
من تلك النظرة التي تقول تناسيتها و لم أنسها، و هو يقول:
- الهندسة.. إنها حلمي منذ الطفولة.
وسكت برهة ثم قال:

- لم أسألك سابقاً عن حلمك لمستقبلك.. ماذا تسعين للدراسة في
الجامعة؟

قلت:- لم أفكر في الأمر. أريد أن أكون إنساناً عاقلاً أولاً ثم
لأفكر بالجامعة أو أي شيء آخر.
قال:- و هل يمنع العقل أن نحب؟

مرة أخرى يحاول التودد وأنا أصر على الهروب، لكنني مع سؤاله
الأول كنت قررت أن يكون هو؛ نعم تمنيتُ أن يتزوجني فتى الشرفة،
لأنني ظننت أنه صادقاً.
أجبتة:

- العقل يقول أن لكل حدث وقته.. و كلانا لديه ما هو مقدم على
عواطفه الآن.

أبدى إعجابه بما أقول و ما احتواه من منطق، فقد قال لي:

- وهل هناك ما هو أهم من الحب؟

فسألته،

- و هل تدري ما الحب؟

قال:

- علاقة رائعة بين شخصين الحب مولد السعادة في هذه الدنيا..
إحساس جميل بين اثنين و دافع للنجاح.
سألته:

- وكيف تتصور هذين الشخصين؟

قال:- رجل وامرأة

قلت:- ليس صحيحا..الحب احساس قد يجمعك بأي مخلوق و قد يجمعك بالخالق.. قد يجذبك لجماد ساكن، ليس به روح؛ أو مخلوق آخر تملأه الحياة قد يكون من جنسك أو لا يكون ولكنك وجدت به ما تميل نفسك إليه و وجدت معه ما تكتمل به حياتك. أما ما بين الجنسين فقد يشمله أو لا يشمله..فعند بعض الكائنات و منهم البشر تكفي الرغبة لكي تقيمه. من الخطأ أن نخلط الحب بما قد يفسده. أو نتخذه مبررا لأخطائنا. فالحب الحقيقي هو داع للفضيلة و ليس مبررا للرزيلة.

تركني أتحدث و توقف عن الكلام محذفاً بي و كأنه يبحث عن آخر داخلي.. ثم سأل:

- أهذا كلامك أنت؟ من علمك إياه؟

بدون تردد أجبته..

- أبي هو من علمني

ارتسمت على ملامحه ابتسامة بين الإعجاب و السخرية ، ثم سأل:
و هل تصدقينه في كل ما يقول؟ إن الأباء كثيرا ما يكذبون علينا و كثيرا ما يتجملون ، بتنا لا نتق في أي شيء يقدمونه لنا.. أنا -
فيما يخصني - لا استمع لنصيحة أحدهم حتى أفكر فيها وأراجعها

مئات المرات. أفعل ما أراه يسعدني و ليس ما يريدونه ، وإن كنت في النهاية أفعل ما يرضيهم لأنني أصادف سعادتي فيه.. لكن حقيقة لا أملك تلك الثقة التي تجعلني أصدق أي مما يقولوه لمجرد أنهم هم الذين يقولوه..

قاطعته :

- أنا أثق بأبي.. فسعادتي لا تصادف ما ينصحي به فقط ، إنها أيضا الطريق التي يرسمها لي منذ مولدي.

عاد لابتسامته السابقة مرة أخرى وقال :

- أتمنى أن تثقي بي يوماً ، كتثقتك بأبيك

توقفت الحافلة التي كنا نستقلها أمام منزل كلانا و تحركت من مجلسي دون أن أعطيه رداً لكنني نظرت إليه و أنا أودعه بنظرة و نفسي تردد لي «لم يحن الوقت بعد...»

قابلني حارس العقار عند مدخله وأخبرني أن هناك خطابا يخصني بصندوق البريد الخاص بنا تناولت الخطاب ، و كانت المرة الأولى التي أتلقى فيها رسالة تخصني ، دقائق قليلة و كنت داخل المنزل ، وقبل أي شيء فتحت الرسالة إنها من صديقة المدرسة

«اليوم رأيت اسمك في قائمة المتفوقين في المدرسة.. سررت بذلك ، و كأني سررت لنفسي. أنا لا أكرهك و لكنني تمنيت أن أكون مكانك. أكون مكانك في اهتمام والدك بك

و هو يودعك كل صباح عند بوابة المدرسة ، عندما يترك عمله و يأتي لحضور احتفالات المدرسة و يدعمك ، حتى عندما جاء معك إلى المدرسة غاضبا لينقلك من فصل فيه آفة مثلي إلى فصل آخر..

كيف تشعرين الآن و أنت تتذكرين أوقاتنا و تقرئين كلماتي؟

لا أعتقد أنه قد يصيبك شفقة أو عطف بل ربما انتابتك رغبة شديدة لتبصقي في وجهي و على الذكريات التي جمعتني بك.

هل تعتقدين أنني مقرفة لهذه الدرجة؟ أنا لا أرى ذلك، لكن فتاة مثلك قد تراني كذلك.. فتاة لم يهجرها أبوها بحثا عن أحلامه التي فشلت في الانبات في أرض وطنه. فتاة كانت تتوسل لسنوات لأبيها ليصحبها في غربته فتنهاه زوجته؛ لأنها ستشغلها عن أعمالهما هناك... هل سمعتي مزحة أكبر من تلك التي خدعوني بها عندما قالوا أنهم تركوني هنا حتى أتربى و أترعرع و أتشرب من عادات مجتمعي و تقاليدهم..

ذلك المجتمع الذي حرمني منه؛ يريدني أن أتخلق بأخلاقه... أف لذلك المجتمع، لن أفعل إلا ما يخالفه و ما أعطاني إياه فليأخذه..

تلومين علي لكثرة علاقاتي بالشباب.. هذا هو المجتمع الذي أجد نفسي فيه ولن أتركه إلا إذا وجدت بديلا غيره يحتويوني..بديلا كالذي لديك.

صديقتي سأظل كما أنا و لن أتغير حتى تُسفى تلك الأحقاد التي أصابوا بها قلبي، حتى يستبدل الخذلان بالأمل..و يعوض النقص بالاحتواء..

كتبت لك اليوم لأنّ والدي و بعد سنوات من الهجرة قرر اصطحابي معه إلى كندا حيث يعمل و يعيش؛ لأنّ جدتي أخبرتهم أنها لا تستطيع إحكام تربيتي و أن سُمعتي ساءت في الحي.. يا له من أمر مضحك كان يلزمه كارثة ليشرع بي.. أما بكائي و إلحاحي لحاجتي لعطفهم فلم يكن عنده ذا قيمة على الإطلاق...

صديقتك البائسة»

لم تكن تلك الرسالة الأخيرة التي تلقيتها من الصديقة بعد افتراقنا أثناء الدراسة في المدرسة الثانوية و لكنها كتبت لي عدة مرات تصف لي حياتها بعد هجرتها و حياتها مع والدها وزوجته بنفس البيت بعد طول افتراق.

كان مما كتبت لي

«صديقتي

قريباً أعود للوطن، أعود وحدي.. يرى والدي أنني لا أستطيع أن أتأقلم مع الحياة في كندا و أنه من الأفضل لي أن أعود للوطن، يعتقد أنه يمكنني الاعتماد على نفسي لأنني تخطيت السادسة عشر. سأعود إلى الوطن و أعيش في شقتي بمفردي فقد ماتت جدتي العام الماضي.

هل تعتقدين أنّ ما قاله أبي أسباب حقيقية؟

كلها ملفقة، فقد أراد أن يخرجني من حياته بعدما شعر باختلافي عنهم و بغربتي عنه و عن عائلته الجديدة. لا أبالغ عندما أقول أن أبي اعتبرني ضيفاً ثقيلًا و قرر التخلص مني من أجل راحة الزوجة و الأبناء الجدد. و لا أخفي عليك أنني لم آلفه منذ جئت إليه فأولاده من زوجته الثانية هم من يملكون كل الاهتمام؛ لقد اعتاد ألا يهتم بي حتى انطفاً احساسه بالأبوة تجاهي.

لا أدري لما لا يدفنون الصغار مع أمهاتهم عندما يمتن.. هل مخافة الله تمنعهم؟ وإذا كانوا يخافون الله فلما لا يُدركونهم برحمته..

صديقتي... لا أدري لما لا يقبلني أحد؟ لا أدري أي قدر من السوء تحويه نفسي حتى يمقتني الجميع.. حتى أصدقائي من الشباب.. أرحل عنهم أو يرحلون عندما أضع أول حد بيننا. أنت أيضاً لم تقبليني.. لكنك جعلت لك سبباً للرحيل.. كانت أسبابك حقيقية، أما أسباب

أبي فهي مُلْفَقَة ، كاهتمامه بي عندما يعطيني المال اهتمام ملفق
مجرد تبرير لنفسه أنه لم يُقصر معي.

صديقتي أكثر ما يسعدني في العودة للوطن ، أنني ربما ألتقيك
مصادفة لأتذكر أن العالم ما زال به بشر جيدون»

بعد عامين من إرسال هذا الخطاب جاءتني الصديقة وقد تحولت
كل أحوالها.



الفصل الحادي عشر

الجامعة بيت العلم والنور، معقل الفسق و الفجور. مكان تتجمع فيه الأضداد و المتشابهات؛ عالم في قلب العالم و دولة داخل الدولة. إنها غابة الإنسان و صورة مصغرة لحال الوطن و شعبه و إذا أردت أن تعرف إنسان فضعه في هذا المكان؛ فيه تطفو خبايا الأشخاص و تظهر لهم معالم جديدة قد تخفي ما كانوا عليه في سابق عهدهم تماما.

لم تكن علاقتي بذلك المجتمع الجديد المختلط بعدد لانهائي من أنماط البشر صعبة بالدرجة التي تصرف انتباهي عن دراستي. إذ كانت علاقتي بهم لا تتعدى علاقتي بأبطال القصص التي أقرأها.. أراها و أفكر فيها.

و أتعلم منها لكني لا أحفظها و لا أحاول التعبير عن ملامحها. تعرضت للاهتمام كثيرا من الزملاء و للسخرية أحيانا. تعرضت للجذب لأقطاب لم تناسبني فنضرت مسرعة و من أقطاب كانت تشبهني أحيانا فتابعتها قليلا ثم انصرفت إلى هدفي الرئيسي من ذهابي لذلك المكان، إنه العلم. لذا فقد تميزت على الجميع و بات تمييزي ملفتا. كان أكثر ما يسعدني و أنا أتحرك بثبات نحو هدفي هو سعادة والدي بي و بتفوقي.

كانت كل الأمور مستقرة و مرضية حتى تفوق أحد الزملاء عليّ في أحد الأبحاث التي طلبها منا الأساتذة. لم أكن أتوقع أن يتفوق عليّ أحدهم، إذ لم أعتقد أن أحدهم يكرس وقته وجهده للعلم و الدراسة بطريقة علمية و منهجية كما كنت أفعل.

لقد فعلت كل ما بوسعي بحثت وابتكرت وابتقنت، لكن ما قدّمه الزميل كان يحوي جهداً أكبر و كما قال الأستاذ «لقد اطلع على مصادر كانت جديدة بالنسبة لي»..

الغريب أنّ ذلك الزميل طلب مني أن أشاركه المراجع و المجلات العلمية التي يتابعها. طلب مني أن نتشارك في عمل أي بحث بعد ذلك. (أدرك ما تعنيه تلك الابتسامة التي ترتسم على وجوهكم الآن.. أدرك حجم السذاجة التي كنت فيها.. من منا ليس ساذجا بأمر ما؟ لا يستطيع ادراكه إلا بعد طول معرفة، لكن ليست السذاجة ما ساقنتني لذلك المأزق. إنه ذكاء الزميل فقد درسني جيدا حتى علم أضعف مدخل لي ألا وهو طموحي للريادة و التفوق الدائم.. لكنني تعلمت بعدها أن أحذر كل الحذر من هؤلاء الذين يطرُقون فقط الأبواب التي يغيرني طرقها)

و رغم أنّ بداية علاقتي بزميل الجامعة كانت فحشا، لكنني لا أنكر أنني كنت في غاية السعادة؛ فقد صرت على وشك امتلاك صديق أتحدث إليه بعد أن أوشك لسانني على التوقف من كثرة الصمت منذ دخولي الجامعة. أعود كل يوم و أتناول الغداء مع أبي و يسألني عن أحوالي و كيف جرت الامور في يومي. كانت الإجابة واحدة لا تتغير كل يوم «بخير وعلى ما يُرام»، ثم يتجه كالنا لعمله حتى موعد النوم. عندما رأيت والدي ذلك اليوم كان لدي الجديد لأحكيه له. أخبرته عن الزميل و اسمه و أخبرته أننا ربما نتشارك العمل لاحقا. رأيت قبول والدي لما أسرده واضحا فاخترت الريبة من نفسي إلا قليلاً.

كان العمل بمشاركة الزميل في بداية الأمر رائعاً؛ رغم أنني كنت أشعر كثيرا أنني أفضل بدونه و لكن رغبتني في وجود شخص

إلى جوارى جعلتني أقنع نفسي بأننا نتقدم أفضل معا. لكن مع تعليق أحد أساتذتي، بأن مستواي تراجع وأنني لم أعد أسعى للأفضل كما اعتاد مني؛ انتبهت لأمري ورغم ذلك لم تنقطع علاقتي بزميل الجامعة خاصة بعد أن قرر زيارة والدي والتعرف به، ثم دعاه والدي لزيارتنا بصحبة عائلته التي تتكون من والديه وأختان؛ وكما كان يعترض والدي على صداقتي بالفتيات فقد حذرني من أن أنخرط في علاقة بأخواته وأن أجعل علاقتي بهن سطحية حذرة. وسمح للزميل أن يتحدث إلى منفردا على مرآة لا مسمعه.

أزعجني ذلك كثيرا منه خاصة مع اختلاف طريقة الزميل في التعامل معي بعدما لاحظ قبول والدي به وبعائلته؛ فقد صار ودودا أكثر توقف عن قول «أنسة» قبل اسمي و صار يناديني به مجردا.. اختلفت نظراته و تخلص من تحفظه بقدر كبير. احترت لقبول والدي ذلك.. هل دار بينه وبين الزميل حديث لا أعرفه؟ أم أنه يرى أن ما يحدث هو الطبيعي؟

لم أكن أريد لعلاقة الزميل أن تصير أكثر من زمالة، مجرد إنسان أتحدث إليه. لم يهمني إن كان يشبهني أو يختلف عني.. كنت أبحث في علاقتي به عن موضوعا للحوار معه أو مع أبي... فقد سئمت الوحدة.. سئمت الحديث إلى الأوراق.. سئمت كل شيء يُذكرني بأن أمانى الوحيد في أن أبتعد عن بنات جنسي.. أريد أن أعرف بشرا جدد وأتحدث إليهم.

أين أمي لو كانت إلى جوارى؟ لكانت صديقتي كما رأيت أخوات الزميل و أهمهم. لو كانت أمي موجودة لكنت فهمت أحزان أبي و عرفت كيف أساعده كي يتخطاها... لما يكره النساء؟ ماذا فعلت به؟ و هل لا يدرك أبي أن البشر مختلفون؟ كي يشخصهم كلهم في أمي.

رغم كل دوافعي فقد أزعجتني علاقة زميل الجامعة بإطارها الجديد.. يبدو لي الأمر مفهوما وجليا و كذلك أعتقد أن والدي يراه.. إن لم يعرفه و يعرف تفاصيله من الزميل نفسه؛ لكنه لم يحدثني إذا كنت أرغب في الارتباط أثناء الدراسة من عدمه و عمّا إذا كنت أجد في نفسي ميلا تجاهه أم لا..

اكتشفت بعدها أن كل ظنوني كانت حقيقية وأن والدي أجّل القرار فقط لما بعد امتحاناتي؛ لأنه توقع قبولي..

(هكذا الأبوان يتركون الأمور تسير دون اعتراض إذا كانت توافق هواهم و إن اختلفت عن كل ما غرسوا فينا من قواعد. كيف لنا أن نخضع لأوامر منهم بعد ذلك و تمر أيام بنا و نحن نراهم يتصرفون وفق هواهم فقط.. كيف تكون الطاعة عمياء.. دون نقاش أو تفكير. إنني أرى ذلك أشبه بالمستحيل).

صار الزميل نادرا ما يتحدث إلي بشأن الدراسة.. لكنه لم يثير داخلي أي مشاعر قد تتحرك داخل امرأة نحو رجل.. لم أره بذلك الشموخ و الذكاء الذي رأيت به فتى الشرفة، والذي صار بعد تخرجه صديقا لوالدي. و عندما اقتربت تلميحات الزميل إلى الصراحة كان علي أن ابتعد أقصى ما يمكنني رغم خوفي الشديد أن أخسره و أخسر المجتمع الجديد الذي اختلطت فيه و لو كان اختلاطا كاذبا و أول ما فعلته هو تغييرني للمجموعة التي كنت أدرس بها العملي معه و تعلت له بأني بدأت أتعلم الألمانية و عليّ تنسيق مواعيدي و كما اقترب هو تدريجيا بدأت أنسحب تدريجيا من علاقتي به. أحس بذلك فحاول الاقتراب من أبي أكثر و سأله عن سبب ابتعادي عنه و تغييرني، لكن أبي لم يكن يملك إجابة فرجع ليعرف مني؛ و ما كنت أملك إلا قولوا واحدا... لا أريد منه أكثر مما نحن عليه زميل و أخ.. أخ يا والدي كنت أحتاج أخا فقط.. طالما لا تصدق الفتيات..

صاحبت رجلا وهذا ما انتهى إليه الأمر.. فقال أبي بلهجة لمحت فيها قسوة غير معتادة و غير مبررة:

- لكنه يحبك.. لماذا تبتعدين؟

- هل تعني ما تقول حقاً؟

- ولما لا أعنيه.. إنه رجل ممتاز يتمناه أي أب لابنته.. وهو يحبك.. أدركت ذلك واستيقنت منه و أنا أتابعه وهو يتحدث إليك؛ ثم أنه سارع بالحديث إلي بمجرد أن تأكد من مشاعره تجاهك.

كنت أحبس الدمع في عيني وأكتم ذلك الألم الجامح الذي انتشر في قلبي.. شعور قاسٍ يقطع كل جميل رسمته لذلك الانسان خلال سنوات عمري.. إنه الخذلان.. يجعل كل أفكارك الجميلة لنفس الإنسان وكأنها صورة من وهم و سراب.. يجرد كل إحساس و صلك منه من الحقيقة.. ولا يبقى داخلك إلا عدم وانعدام الثقة فيه.. ملت بوجهي بعيدا عنه و كأنني لا أريد لنفسي أن تُصدق أن من يحدثني هو أبي و قدوتي و قيمتي و قامتي على هذه الدنيا و قلت:

- لهذا كنت تطبق على شفتيك عندما يطلب أن يتحدث إلي منفردا و أنت من علمتني ألا أفعل ذلك. تريد أن تلقى له بجهد سنوات عمرك.. بذكرياتك و أفراحك.. بحياتك كما تصفني أحيانا لمجرد أنه يود ذلك أو أنك تراه مثاليا..

- ماذا عني أنا؟ وماذا عن أحلامي و رغباتي؟ ماذا عن قلبي الذي أغلقتة لسنوات، أنتظر فيها الوقت المناسب لألقى من يسكنه.

هل أعيش بقلب فارغ حتى الموت.. أم أغامر بجزء من حياتي تحت احتمال أن أجده أو لا؟

غضب والدي واحتمد أكثر و كأنه يُحدث شخصا غيري وقال:

- إنه يحبك؟ ألا تعين معنى أن يحبك رجل.. ستكونين أميرته
وكل أحلامه.

لن تعرفي قوته إلا لأجلك. سيفعل من أجلك المستحيل ويصبح
كل شيء سهل عليه إلا فقدانك؛ لأن عينك ستكون كونه الذي لا
تفنى منه السعادة ويستقي منه الأمل. حبُّ الرجل ضمان بالأمان وعدم
الإهانة، فأنتِ حديقته التي يرعها ليحمي زهورها من الذبول.. رجل
يحبك يعطيك كل ما تتمناه امرأة دون أن تسأليه.

- ذلك إذا كنتُ أحبه.. إذا كنت أريده.. إما إذا لم يكن.. فلن
يشبعني منه شيئاً وقلبي فارغ.. بابا إن قصراً لم تبغِ سكنه هو سجن
كبير يحتوي أيامك.

- ولما لا تحبينه؟ هل هناك من يشغلك؟

و لم أعرف كيف أجيبه أو ماذا أقول له.. فأنا لا أعلم إن كان
قلبي مغلق أم مشغول.. هل هناك صورة محددة أبحث عنها لمن
سيشاركني حياتي. و هل هذه الصورة متعلقة بشخص ما أم أنها لا
زالت مبهمة؟ و لم أجد إجابة واضحة لسؤاله فقلت بتردد:

- لستُ أدري، ما زلت لا أعلم ما أريد.. ربما أنتظر قلبي ليعطي هو
الجواب. لكني لا أريد أن أكذب... أن أكافئ حبا بكذب وخداع.

قال أبي و قد مال بوجهه بعيدا عني:

- ما كان لك أن تقبلي بالحديث معه منذ البداية.. كان واجبا أن
تبتعدي فالأرواح تعشق من تألفه و قد ألفك و ألفَ قربك و لم يتجاوز
بل أتى إلي يطلبك.

- لم أتعمد حديثي إليه.. ولكنه من فعل.

علمت بعد ذلك أن والده يمتلك واحدة من أكبر شركات
البرمجة و ذلك ما فسّر لي بعد ذلك تفوقه علي لمرة واحدة.. تلك

المرّة التي طلب مني فيها أن نعمل معاً.. و ما كنت أسعى لأكثر من العمل معه. هو لم يوضح لي حقيقة نواياه منذ البداية حتى أوضح له أنا حقيقة ما بداخلي له.. حتى وإن كنت أدرك و أتفهم مغزى كل ما يدور.. فأحياناً نتغابى أو نتظاهر بالغباء لحاجة في نفوسنا.. حاجة تتقصنا ، لم يكن زميل الجامعة سوى بديل عن أي زميلة من جنسي. تماديت معه لأجد معه بديلاً أتحدث إليه طالما أن النساء كاذبات فالرجال قد يكونوا صادقين.

(أرى و أشعر تلك النظرة المشمئزة.. أشعر أن بعضكم يود لو ينهي وجوده معي و يرحل؛ لكن فضلاً استمعوا؛ إذا كنت ممنوعة من مصادقة الفتيات و من أي علاقة مع الشباب تحت مسمى صداقة. كان على والدي أن يعطيني بديلاً.. بديلاً شرعياً و ما كان البديل غير أمي التي لا أدري عنها شيئاً أو فتاة يتلمس فيها الصلاح ممن يعرفهن.. لكنه لم يفعل، منعني ولم يعط أي بديل.. فجاء الزميل مغلفاً علاقته بخدعة العمل لعلمه أنني لن أقبل بحديث غير ذلك.. تغابيت و قبلت.. لأنني أردت مشاركة شخص الحديث. كان من الممكن أن يكون زميل الجامعة مجرد شاب مستهتر و أن أتعلق به أنا.. أقصد أن تنعكس القضية و أكون أنا مكانه..

هل تعتقدون أنني سأجد تعاطفاً تجاهي؟ تعرفون جميعاً الإجابة.. سأكون مخطئة لأنني قد تعلقت به دون أن يُصرح أو يوضح و تكون المشكلة تخصني و هو غير مسؤول.

عليكم الآن أن توجهوا إليه نفس النظرة: فأنا لم أعد و لم أصرح و لم أوضح.. فهو إذا المسؤول عمّا يصيبه.. لا أنا)

ما زال أبي مُصراً على موقفه تجاه زميل الجامعة ، و طلب مني أن أراجع التفكير.

و كما اعتدت بعد أي نقاش بيننا تعود إليه حالة الحزن الذي تصيبه و يبقى في غرفته عدة أيام. لكنني هذه المرة ورغم حزني الشديد لما يصيبه؛ لم أحاول التدخل أو الاعتذار.. لم أحاول أن أرضيه أو أسترضيه، فما تحدثنا فيه ليس مشكلة عابرة أو خطأ ارتكبته و علي الاعتذار والتراجع عنه و لكنها حياتي.. حياتي القادمة كلها.

و للمرة الأولى أبدأ بعمل حساب لي على أشهر وسائل التواصل الاجتماعي في محاولة جادة للبحث عن أمي؛ لقد قررت أن أجدها و أن أفهم كل ما يحزن أبي و ما حرمني منها.. كانت المشكلة الأولى التي واجهتني هي أنني أجهل شكلها تماما، لكنني كتبت اسمها و حاولت البحث. أشخاص كثيرة تحمل نفس الاسم ضيقت دائرة بحثي بين هؤلاء اللاتي تخطى عمرهن الأربعين. كانت حسابات قليلة هي التي تبدو حقيقية فأرسلت لهن جميعاً رسالة واحدة «هل لكم شخص مفقود تبحثون عنه؟ هل فقدت احداً كن ابنتها في سن صغيرة» ووضعت صور لي مع أبي على حسابي و حصلت على صورة قديمة لوالدي و أضفتها.. كانت محاولة لم أثق في نجاحها و لكن كان علي أن أحاول.



الفصل الثاني عشر

في اليوم التالي قابلت صديقتي التي عرفتها في الاعدادية ،
الصديقة الوحيدة التي تسنى لي معرفتها عن قرب من جنسي. حضرت
تبحث عني لتسألني عن حل و أي حل يمكن أن أجده لمشكلة و أنا
أفكر في كل خطوة من حياتي مسبقا ، حتى لا تواجهني المشاكل.
لم أكن أدري حتى وقت قريب ماذا أفعل لو طرأت على حياتي مشكلة
أو أمر لم أعد له.

صديقتي التي كانت ستصحبني إلى طريق مجهول النهاية ،
و افتقرت عنها عند إحساسي بالخطر. أتّمت الطريق بمفردها بعد
عودتها من كندا أو كما أخبرتني " بعدما أرسلني والذي من كندا
عندما وجد أنني أختلف عنهم ولا أستطيع التأقلم مع البلد الجديد..
لكن الحقيقة أنه و جد فتاة أخرى غير التي توقعها فكنت غريبة
عنه و كانوا غرباء عني و بدلا من محاولة جمع ما حدث بيننا من
شتات قرر إرسالني للحياة في الوطن مرة أخرى ، مبرراً ذلك بأنني قد
وصلت للسن الذي أستطيع فيه مواجهة الحياة بنفسني. "

أضافت بأنه قد تخلى عنها للمرة الثانية فالأولى كانت عندما
تركها بحثا عن طموحه لجدتها ظاناً أنها ستعوضها عنه و الثانية
حينما وجد خُلقها و طباعها قد نمت على غير ما يتوقع؛ فبدلا من
تقويمها و احتوائها طلب منها العودة للحياة على أرض الوطن و
ستدرس هناك بجامعة على نفس مستوى الجامعات في كندا.. برر
ذلك أنّ الوطن أكثر أمانا لها.

قالت الصديقة «إحساسك بتخلي من تخصصهم عنك أقرب

للإحساس بالموت إلا أن الموت يكون بلا اختيار فتكون فيه رحمة. أما التخلي فهو اختيار الترك والهجران وهنا تكون الرحمة قد نُزعت عن آخرها ، ليقطع كل طرف يربطه بك لأسباب واهية و علل غير مقنعة.

معتقداً أن ذلك حقاً لديه و أن ما يخصه ليس لي أن أسأل عنه.. ولم يفكر أن ما يخصه هو بذاته ما يعنيني ألم يكن سببا في وجودي في هذه الحياة ، إذا فقد كان عليه إعدادي لها و حمايتي من أخطارها. ما كان يجب إلا أن يتزوج بامرأة تعوضني أمي و إلا فليهتم بي أولا.. الآباء أنانيون عندما يضعون أبناءهم في المرتبة الثانية و قاسون إذا ما تركوا همّ تربيتهم لغيرهم. لا يحل أحد مكان هؤلاء اللذين خلقت منهم و كانوا سببا في وجودك لا أحد يمكن أن يعوض حرمانك منهم خاصة و هم على قيد الحياة.. إن تخليهم عنك يثير تساؤلات كثيرة بلا أجوبة. تساؤلات تتنامى حتى تصل بصاحبها إلى التشكك في تصرفه و سلوكه و في سواء نفسه. تصل به إلى التشكك في رغبتهما في وجوده و حضوره إلى هذه الحياة.. تخليهم هو كتلة من العذاب ، فهل خلقنا لنكون لأسباب لشقاء بعضنا البعض؟

تخلي و كأنه أعطاها حق الرعاية في السن الذي كانت تحتاجه فيها ، حتى تواجه بقوة بعدما تكبر..

كانت تخبرني سابقا أنها تستطيع أن تحدد متى تتوقف كي لا تؤدي. كانت تعتقد أنها تمرح و تتسلى ، لكن في هذه المرة لم تقرر البداية أو النهاية. لم تقرر أي شيء ولكنها انساقت فقط وراء رغبتها و خلف حريتها التي لا يقيدها حب أو مبدأ أو عقيدة. اندفعت و لم تفق حتى وصلت النهاية. النهاية التي غيرت نظرتها للعالم أخيرا.. والتي جعلتها تتعلم أن الفضيلة هي أساس راسخ من أسس الحياة.

قابلت صديقتي فتاة أخرى التزمت بنفس سلوكها و وجدت كل منهما ضالتها في الأخرى. كانت العلاقة بينهما جيدة فهما متفقتان في كل شيء تقريبا؛ إلى أن التقت صديقتي بوالد صديقتها ، رجل ثري ذو شهرة و صيت ذائع ، كل المتاح لديه مباح. ليس لديه قيود و لا قواعد فبمجرد أن لاحظت عيني الفتاة تبحث فيه عن والدها بحث فيها عن بريق شبابها الذي بدأ مُشعاً لكل من يراها وقرر أن يطفئه. كانت تلتقيه في البداية بصحبة ابنته ثم تحولت اللقاءات بغير ابنته فمحادثات تمتد من بداية اليوم و حتي نهاية الليلة. صار عادة لا تتوقف لها ؛ ثم اختفى لتبحث هي عن حاجتها فيه.. التي ظننتها حاجة لأب هجر وتخلّى ثم تحولت إلى حاجة تعلق بات كالإدمان بين أحاديث محرّمة و أفعال أكثر حرمة.

أضافت وهي تحكي «في لحظة ما وددت لو أهرب لأبي؛ أحتمي فيه من هوى نفسي لكنني لم أظن فيه حماية ، لم يعلمني أحد إلى من ألتجأ غير البشر. ربما خطر في عقلي و أنا أجن من شوقي إليه لما أنا من بين البشر يتركني الجميع.. ما حجم السوء الذي بداخلي كي ينفر مني أبي مرتين و تنفر مني جدتي.. صدقيني لم أجد جواباً. تخيلت أنّ الجواب لديه ، والد صديقتي؛ فقررت البحث عنه».

بحثت عنه و عرفت أنه يمضي وقتاً في إحدى المدن السياحية و ما كان منها إلا أن لحقت به و يأسها يسري فيها كدمها في العروق. تزوجا بطريقة غير رسمية و بمجرد أن انتهى منها مع انتهاء رحلته في هذه المدينة لم تجد إثباتا لعلاقتها به. وانتهى كل شيء. لم يبق مما حدث غير ذلك الطفل الذي أتت تحمله و هي تطلب مساعدتي.

(أتم أخبركم سابقا، لولا وجود رجل فاسق ؛ لما كانت هناك امرأة ساقطة.. لكن هل سقطت صديقتي بسبب رجل واحد؟ لا

أسقطها رجلاً، رجل فاسق ورجل تخلى وأهمل الأمانة.. أهمل رعيته.. أهمل مسؤوليته عنها بحثاً عن راحة باله. لكن كيف يرتاح بال رجل بحق وهو غير مطمئن عن رعيته. هناك الكثير عن مفاهيم الرجولة يجب أن يُعرف ويُناقش.. فهي أكبر من أن تُلقى لأي ذكر وأول ما في الرجولة أن يغار محارمه)

هممت بالصراخ فيها و سؤاها عن ضميرها وأين دفنته وهي تندفع خلف رغباتها بلا عقل أو تفكير و كيف حولت حياتها إلى فوضى تستحي الحيوانات أن تسلكها و كيف فعلت تلك الفواحش دون أن يُعكر الإثم صفو نفسها و لو لوقت قصير؛ لكنني تذكرت أن الضمير يتربى و ينمو داخلنا مع كل خلق جيد نتعلمه و نكتسبه من قدوتنا و تذكرت أنه كي ينمو بداخلنا ضمير حي و إحساس رقيق يتحاشى و يخاف الذنب لأبد لنا من عاطفة نكتسبها ممن حولنا هؤلاء الذين يقومون بالتربية أو الدينا. و لأبد أن نثاب و نمدح عند فعل الصواب كي نستحي من الخطأ لأن الخطأ و الخطيئة ستجرمنا الشعور بالسعادة و الفخر، الذي نشعر به عند المديح على كل فعل جيد نقوم به.

تذكرت أنها حُرمت كل ذلك قدرًا بوفاة أمها و قهراً بعد زواج والدها بأخرى و هجرته تاركًا إياها لجدة بالكاد تقوى على رعايتها لا تربيتها و احتواء غضبها الغير منتهي تجاه والدها.

و رغم ذلك لم أتوقف عن لومها و قلت في غضب:

- لقد نصحتك بالابتعاد منذ بداية الطريق.. لكنك اخترت الطريق

الخطأ

فقلت وعيناها تهرب للفضاء الواسع و صوتها يملأه الندم:

- لم يكن الطريق الخطأ حينها، كنت فقط أبحث عما أحتاجه

و عما أجد سعادتي فيه.. كنت أحتاج حباً فقدته، فبحثت عنه
كحطاب الليل في الصحراء لا يفرق بين الثعابين و العصي.

- تسرّعتِ..

- لستُ أنا من يهم الآن.. لستُ موضوع الحدث

- و من إذا؟

- ذاك الذي أحمله.. كيف سيعيش بلا أب بلا أوراق ولا هوية. لم
أجرؤ على تقديمه لأي مكتب صحة ليحصل على تطعيماته.

تبهت لجمالها الأخيرة و نظرت إلى الطفل الذي لا يكاد يظهر
من لفافته التي تحمله فيها و حاولت التحلي بالهدوء و قلت:

- ماذا تعتقدين أنه باستطاعتي فعله؟ لست إلا فتاة في التاسعة

عشر

- ربما يعرف والدك أحد رجال القانون يساعديني في إثبات نسب
هذا الطفل.. أخشى أن أتعامل مع رجل آخر فيطمع بي بعد أن يسمع
حكايتي.. أريد من أستأمنه على نفسي

- أصبحت تخشين التعامل مع الرجال بعد أن كانوا لك وسيلة

للتسلية

- اكتشفت هشاشتي.. وعرفت ضعفي. أخيرا أدركت أني لست
بالقوة التي كنت أتصورها. و صرت الآن أضعف من ذي قبل. لم أكن

أعلم قبلا أن القواعد وُضعت لتحفظنا و أن الالتزام بها هو مناس
الحماية الوحيد لنا. لم أكن أصدق أن من يحوم حول الحمى يوشك

أن يقع فيها حتى وقعت و حطمتني صدمة السقوط. لا أريد العودة
لطريقي السابق، لكني لا أدري ما البديل. تذكرين حينما ابتعدتِ

عني لتحمي نفسك من طريقي أريد أن تقتربي مني لأتعرّف معك على
الطريق الصحيح، أحتاجك دليلا لأتخطى الظلام الموجود في حياتي.

لا أعتقد أنّ شيء أصعب من أنّ يعتقد الآخرون أنّ لديك قوة ليست بك. ويطمحون بناء على اعتقادهم في المزيد منك. ذلك المزيد الذي ترى أنّك أضعف كثيرا من أنّ تقدمه. جعلتني الصديقة في موقف صعب فإما أنّ أعترف بضعفي وأخذلها، ولا أدري أين ستتوجه أو ما ذا ستفعل بعدها. وإما أنّ أصدق اعتقادها وأحاول.. فقط لكي لا تشعر أنّي تخليت.



الفصل الثالث عشر

وعدتها أني سأحاول و أسعى قدر استطاعتي لمساعدتها و لو
بكوني فقط على اتصال بها. لجأت لوالدي أسأله إن كان يعرف
محاميا ذو خبرة في هذا النوع من القضايا. لكنه قبل أن يجيبني
أغرقتني بوابل من الأسئلة كأنني ارتكبت جريمة لمجرد استماعي
إليها. أخبرني أن سمعتها السيئة ستمسني بصحبتها و أنها أخطأت
و عليها وحدها أن تتحمل نتيجة خطأها ، عليها مواجهته وإصلاحه.
فقلت و أنا أرفض بشدة قوله:

- هل تضع طفلها في كيس و تلقي به في القمامة أم من الأفضل
أن تقتله و تدفنه لأن بقاءه عار سيظل ملازمها مادامت حية. أم تعطيه
لمتسولة تستخدمه و بعد ذلك يكبر ليصبح عنصرا فاسدا و قد
أكون أنا أو أنت أحد ضحاياه. إذا كنت ترى في هذه الحلول ما هو
أفضل مما تسعى إليه فأخبرني.

اقترب مني و أمسك بكتفي بقوة ألمتني. ، وقال:

- لما تصدقيها إنها كاذبة.. إنهن كاذبات

رفعت عيني إليه وقلت:

- أنا منهن.. أنا أصدقها.

و أضفت و قلبي يرتعش و هو لا يزال ممسكاً بكتفي:

- بابا.. ليست كل النساء كمن آذتك يوما و لا كل الرجال

كذلك الفاسق الذي آذاها.

وضعت يديّ فوق يديه التي ضعفت قوة إمساكها مع جملتي

الأخيرة، وهو لا يزال مستندا بكفتي وقلت برجاء:

- لقد كبرت بما يكفي لأفهم، تحدّث إلي رجاءً وأخبرني بما تكتمه.. ما عدت أتحمّل ما أراك عليه من هموم وأحزان

- تتحدّثين عن الكتمان.. وماذا لو كان ما نكتمه لا يجب إلا كتمانته. نحن بشر تحكمنا أشياء كثيرة، ليس كل ما نشعره يمكن أن يقال. فربما كانت كارثة قوله أكبر من كارثة كتمانته.

- هل هي أمي؟ هل خذلتك؟ وإن لم تكن هي فمن؟ ولماذا ابتعدت إن لم تكن هي؟ وإن كانت هي فماذا فعلت؟ ما عدت أطيع الصمت وما عدت أحتمل كتمانك.. هل يخص الموضوع كرامتك. وإن كذلك، هل من حل وسطي يجمع الراحة والكرامة. أم تترك الصراع والكتمان داخل نفسك قائماً بحجة حفظ المبادئ والأصول و تنهار نفسك و تنهار معها كل قواعدك الانسانية الجميلة، ولا يتبقى منها إلا أشلاء؟!

- أشلاء.. حقا هي أشلاء فبعض منك معك و بعض رحل عنك وتبقى مكانه الألم.. ألم الفراغ والفراق والوحدة.

سعدت جدا هذه المرة لأن أبي لم يملكه الحزن ككل مرة أذكر أمي و لكنه حاول أن يستقيم و يرفع صوته لي متسائلا بعد جملة الأخيرة:

- ألم تحاول تلك الفتاة إنهاء مشكلتها وديا مع والد الطفل؟

انتبهت إلى سؤاله والسعادة تعمروني و قلت:

- لقد وافقت على مساعدتها إذا.

- نعم.. ليس من حسن الخلق أن نخذل من يلجأ إلينا.

- لقد حاولت قبل أن تضع المولود أن تخبر الأب.. لكنه أنكر

وطلب منها التخلص من الجنين إذا كانت تريد البقاء معه.

- سأدُلها على من يساعدها و أتابع معه قضيتها ، لكن شرط أن

تبتعدي عنها لا أريد أن تلتقي بها

- لكن يا أبي ربما...

- هذا شرطي.. و إذا كانت تحتاج لمن يساعدها أو يعلمها كيف

تعتني بطفلها يمكنني أن أتحدث إلى دادة عفاف التي كانت ترعاك في طفولتك. لن تحتاج منّا أكثر من ذلك.

- دادة عفاف ! تلك هي المرأة الوحيدة التي سمحت لها بالاقتراب

مني. لكن هل أتواصل معها عبر الهاتف فقط.. لن ألتقي بها.. ربما

احتاجت لمن تتحدث إليه.

- هاتفيا فقط.. و إن لم تفِ بعهدك معي سأتخلى عنها.

يبدو أن ألم أبي ما زال بداخله ، لكنه هذه المرة ولأول مرة يتظاهر

بالصمود. ورغم ذلك انسحب إلى غرفته وبقي وحيدا عدة ساعات. و

كأنه يراجع أمرا ما في حياته.

لم أنتظر هذه المرة حتى يخرج من وحدته بإرادته كما أفعل كل

مرة ولكني قررت مشاركته فيها ، مشاركة أفكاره و ذكرياته

التي تؤلمه وحده ، طرقت الباب حتى سمح لي بالدخول فوجدته

يُمسك ألبوماً لصور مرسومة بأقلام الفحم له و لامرأة أخرى. أشار

إلى المرأة و قال هذه والدتك. جلست على كرسي مجاور له و بدأ

يُريني الصور واحدة تلو الأخرى و يحكي لي عن وقت رسمها و عن

حالته و حالة أُمي معه.

كنت أسمع بشغف كبير ، رأيته و كأنه يكاد يتعلق بالنجوم..

سعادة لم أعرفها عليه قط غمرته و هو يمسك الألبوم و يحكي. كان

التاريخ المدون أسفل الصور يدل أنه تم رسمها بين عامي ١٩٩٠ و

١٩٩٧ انها نفس الفترة التي كان يدرس فيها أبي في الجامعة. بعد وقت أحسسته طويلا وصلنا لآخر صور وأشار إلى طفلة بينهما وقال «هذه أنت».. بعدها حلّ عليه صمت كأنه الموت و تطايرت كل أمارات السعادة. قطع صمته بكلمة واحدة و عيناه تراقبني قائلا " انتهت حكايتنا.. لم يتبقى منها إلا أنت..»

لم أرد أن أثقله بسؤالني أين هي؟ أو لماذا رحلت؟ لكنني سألته:
- ألهذا الحد كنت تحبها؟ مجرد ذكرى معها تعلقك بالسماء ثم يلقىك هجرها لأعمق وادى في صحراء مظلمة.

- ما زلت لا تدركين معنى أن يحب الرجل. إنه يترك لحبيبته جزء من قلبه مادام حيا.. لا تهجره و لا يسكنه غيرها.. قد يتظاهر بالقوة والنسيان. لكن نزعها من قلبه سيكون بمثابة نزع الروح من الجسد. تمنيتُ لو أنني عشقت قبل اليوم حتى أدرك و أتفهم ما يشعره أبي.. لم أمر بتجربة مشابهة و لم أجد لي مبررا واحدا في أن أنكر عليه حزنه، رغم يقيني أنه يجب عليه أن يتخلص من حزنه و من ذكرى ذهبت صاحبها عن حياته.. ليرى حياة جميلة و يمكن قلبه من حب جديد، حب يملكه الواقع لا الذكريات و الأحلام. و قبل أن أترك الغرفة طبعت قبلة على خده و أخبرته أنني أحبه كثيرا.



الفصل الرابع عشر

في اليوم التالي خرج أبي بصحبة صديقتي إلى المحامي الذي ستوكله قضية اثبات نسب طفلها ، و كان مما رواه أبي لصديقه عن قصتها سببا كافيا لتعاطف المحامي معها و يقوم على قضيتها بقلب أب تم التغرير بابنته. سرد عليه والذي ما أخبرته به من مخاوف الصديقة فأخبره أن يطمئن وأنه سيتابع معها كل خطوة كأب.

دخلت لحسابي الذي سجلته خصيصا على أحد مواقع التواصل الاجتماعي للوصول لأمي. لكني لم أجد أي رد ، ربما ليست واحدة ممن أرسلت لهن وربما لا تملك حسابا على هذا الموقع من الأساس. كان هذا الموقع هو أشهرهم وفي محاولة يائسة كتبت اسمها ثلاثيا على الباحث؛ توقعت أن تظهر لي عبارة « لا توجد نتائج » ، لكن صدمتي كانت قاتلة فأمي التي لم تسعى مرة لرؤيتي ترعى جمعية لجمع التبرعات للأطفال بلا ملجأ و مصابي السرطان. تشككت فيما أراه فبحثت عن أكبر عدد من الصور لها. إنها تماما ذات المرأة التي رأيتها في الألبوم الذي رسمه أبي. لا يمكن أن يكون تشابها بالشكل والاسم معاً. وتساءلت والألم يمزقني هل يعلم أبي بأمرها؟ بعد عودة والدي ، لم أستطع البوح له بأي شيء مما عرفت و قررت التوقف عن سؤاله عنها. لكن ظل في نفسي سؤال واحد يحتاج لجواب وهو كيف لأم يتسنى لها الابتعاد عن ابنتها كل تلك السنوات و هي تملك في قلبها رحمة لمن هم بلا ملجأ ومرضى؛ أليس من الأولى لها أن ترحم من خلقت في الأساس لترحمه ، ترحم ابنتها من وجع فراقها. ولأخفي ما ألم بي من هم أعددت له طعاما يفضله تعبيراً عن شكري

و امتتاني لما قدمه لصديقتي و تشاغلته معه بالحديث عما جرى خلال يومه معها .

هذه الأيام صرت أشعر بحزن يشبه ما كان يصيب أبي فلا أنا أستطيع أن أنساه ولا أجرؤ أن أحكيه.. حزن لا سبيل للخلاص منه إلا اقتلعه من جذوره فهو لا يشبه تلك الآلام التي يمكننا تجاهلها أو نسيانها أو كالتى تذهب عنا بمرور الزمن. حزن لن ينتهي إلا بوجود أجوبة لتلك الاسئلة الكثيرة التي تثيره داخلي.

عدت للجامعة وبدأت أتشاغل في دراستي.. التقيت بزميل الجامعة كان أول من يلاحظ ما بي من شرود ، حاول الاستفسار عما بي لكنني أنكرت شرودي بابتسامة راقية قائلة:- لا شيء بي سوى بعض الإرهاق.

وأضفت:- ربما أحتاج لتغيير الجو.. أحتاج رؤية أشياء لم أرها من قبل. لاحظت دهشته و هو يقول:

- هل تودي أن نخرج سويا لأي مكان.

فلم يكن من عاداتنا أن نخرج سويا خارج أبواب الجامعة ، حاولت أن أصلح فكرته سريعا فسألته:

- هل لديك معرفة عن أنشطة الجمعيات التي تجمع التبرعات لصالح المرضى و الفقراء؟

- مؤكد ، أحيانا ندعم كثيرا منها و نحصل على إيصالات لأن ما يتقاضونه يتم خصمه من الضرائب عند تحصيلها من قبل الحكومة.

- أسمع أن العمل بتلك الأنشطة يخفف كثيرا من الشعور بالوحدة و فقدان قيمة الوقت ، أعتقد أن الاقتراب من معاناة من لا يملكون شيئا تجعلنا نشعر بقيمة ما نملكه بصورة أفضل.

أحسست أنه بدأ يتفهم و يصدق سبب سؤالي ، فشعرت بجزء من

الطمأنينة وأنا أتحدث، بعدها قال:

- تريدان الانضمام لإحداها إذا.. تودين العمل معهم؟
- نعم، ربما يمكنني ذلك من التخلص من إحساسي بالوحدة..
تعلم أن عائلتي صغيرة جدا.
- ربما أستطيع المساعدة..
- حقاً
- مؤكداً
- أعرف جمعية اسمها (ملجأ).. تابعت عملهم و يعجبني نشاطهم..
كانت تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالود وأنا أتحدث إلى
الزميل، و رأيت حماسه لمساعدتي أو لأنني حاولت الاعتماد عليه. هنا
تذكرت قول أبي «هل تعين معنى أن يحبك رجل.. لن يُعجزه شيء في
الكون غير فراقك»



الفصل الخامس عشر

علمت من والدي أن من خدع الصديقة و غرر بها ذكّر له شهرة مجتمعية واسعة بحكم عمله الإعلامي، و أخبرنا المحامي أنه أنكر كل ما ادّعتة صديقتي. كان الحديث يعني أن القضية من المنتظر أن تأخذ بُعداً عاماً بحُكم شخصية الجاني أو المتهم. كان يسأل والدي عمّا إذا كنا مستعدون لذلك و عما إذا كان واثقاً من صدق حديث الفتاة.

كان أبي يستمع إليه عبر الهاتف و ينظر لي بنظرات ملؤها الشك و كأنه يقول لي « هل أنتِ واثقة من صدقها ستكون فضيحة لا تُنسى إن كانت كاذبة» لم أعرف ما أقول، و لكنني هاتفتها لأخبرها بما قاله المحامي و لتختار هي ما تريده. و ما إن شعرت بالالتهام حتى بادرت بالدفاع و البكاء قائلة:

- أعرف أنه شخص معروف و قد يعلم الجميع بما حدث لكن ليس ذلك ما أهتم به أو يشغلني، أريد فقط اثبات انتماء الطفل لأبيه. صمتت لثواني قليلة ثم تابعت:

- أعلم أن مقدماتي معك و كل ما عرفتيه عني يجعلك تتشككين في أمري، لكن ما مصلحتي أو مكسبي بما سأفعله؛ كل ما أحтаجه ورقة، مجرد ورقة يستطيع بها ذلك الطفل أن يعيش بلا عار في مجتمعه، ورقة تحمل حقيقته و حقيقة نسبه و إن كان وضيعاً في ثياب الشرفاء.

بعض الأخطاء تنتهي بمجرد حدوثها، قد يمكن إصلاحها و بعض الأخطاء تنتهي عنها بمجرد الابتعاد عنها.. لكن ماذا عن تلك

الأخطاء التي تثبت عنها خطايا و تطبع علينا ما لا يمكن إزالته.

هل تكفي ورقة لتصحيح خطيئة؟ هل حقا ستحمي الطفل من العار؟ أم ستكون سببا قويا ليعود الأب عن جريمته في حقها معتذرا معترفاً بأنها زوجته..؟

لا هذا ولا ذلك، إنها لمجرد اثبات الحق القانوني في انتماء الطفل لأرض وُلد عليها.

أما هي فستظل منكرة من الجميع أو الأكثرية و إن تابت و أنابت... ستتال عقوبتها من المجتمع بكل قسوة إلا إذا امتلكت من السلطة و المال ما يغلق أفواههم. وهو لن يعاقبه القانون لأنه تسبب في قدوم إنسان سيحمل نفساً مشوهة إلى هذا المجتمع... لن يعاقبه أو يعاقبها لما جنياه في حق ذلك البريء الذي وُلد مُكرها في مجتمع سيعامله على أنه بلا كرامة و بلا شرف.

و بعد فترة قليلة سيتناسى الجميع خطيئة الأب و يُقال «رجل وأخطأ» و كأن الخطيئة حق مكتسب لهم؛ و ربما قالوا هي من غررت به حتى أوقعته و كأنه بلا شخصية منزوع العقل و الإرادة. ستظل هي الأثمة الوحيدة التي خابت في حماية عرضها. الأثمة التي أضاعها رجالان، رجل أهمل تربيته و آخر استغل ضعفها.

قطع أفكاري جرس الباب هناك شخص ما قادم لزيارتنا، شخص غير متوقع. دهشت ووالدي يقول «في موعده تماما» و دهشت أكثر عندما رأيته. إنه فتى الشرفة. رغم مُضي خمسة أعوام بعد آخر مرة التقيته، إلا أنني ما زلت أشعر بخجل شديد كلما أراه؛ ذلك الخجل الذي يجعلك تود لو تختفي حتى يمرّ الموقف. قدّمت لهما مشروبا و جلست في غرفتي أتعجل انتهاء حديثهما لأعلم ما دار به. و انتبهت لقلقي فجأة؛ و تساءلت لما أنا على هذه الحالة... فلم أجد مبررا

يستحق. لا شيء أخشاه فقد أخبرت أبي الأمر كله منذ سنوات. لقد صرت ناضجة وانتهت الحكاية.

ورغم محاولة اقناعي لنفسي أنّ الأمر لا يعنيني، فما لبث فتى الشرفة أن خرج من البيت حتى سارعت إلى أبي أعرف سبب الزيارة، لكن أبي لم يزد قوله على «إنها مجرد زيارة عمل». ولا أدري لما أصابني الإحباط حينها وتساءلت «هل كنت أريد من زيارته شيئاً آخر؟» وللمرة الثانية تصدمني انفعالاتي تجاه أشياء لم تكن متوقعة، ويبدو أنّ أبي لاحظ ارتباكي فسألني باستنكار «هل من خطب ما يزعجك؟»؛ فأجبت بسرعة «لا شيء على الإطلاق».

نعم، يجب ألا يكون هناك ما يزعج أو يسبب الارتباك على الإطلاق. ما هذا الذي أصابني؟ أيعقل أن تحمل نفوسنا أشياء لا ندرکها.. تحمل قلوبنا مشاعر نجهلها.. هل تمام المشاعر أيضاً حتى تحين اللحظة المناسبة لتستيقظ، تمام حتى نطن أنها انتهت و نسيناها؛ فتلقى أول مثير لتفريق من جديد؟

(لم أنتم أيضاً مندهشون.. تتساءلون كيف اعتقدت أنه جاء لخطبتي؛ رغم أنه نال مني يوماً ما، تمنيت ذلك. و ما كنت أعتقد أنني أحببته إلا ذلك اليوم تمنيت أن يكون هو ذلك الرجل الذي يخبرني تفاصيله الصغيرة دون خوف أو خجل. تمنيت أن يكون هو؛ لأنه الوحيد الذي لا أملك شيئاً أستحي منه لأخبره به. لأن خطأي الوحيد كان هو صاحبه.)

ولأن لا حيلة لي، قررت أن تعود تلك المشاعر لثباتها حتى حين. و رغم أنه قرار مؤلم إلا أنني لم أكن أملك غيره.



الفصل السادس عشر

اقتربت و زميل الجامعة من مبنى الجمعية الذي بدت عليه الفخامة ، قبل الدخول من البوابة سألنا الحارس عن هويتنا فبادر الزميل بتعريفهم بنفسه و بوالده رجل الأعمال المعروف و أنه حضر للتعرف على نشاط الجمعية وقبل أن يعرف من أنا ، سارع قائلاً « تفضلوا إلى مكتب السكرتارية ».

سجلت السكرتيرة بيانات كل منا ، ثم أشارت إلى موظف آخر و أخبرتنا أنه من سيقوم بتعريفنا بأنشطة الجمعية. كانت عيني تدور في المكان باحثة عن أمي. هل يمكن أن أراها و لما لا أطلب مقابلتها و عبّرت للموظف عن إعجابي الكبير بالمسؤولة عن الجمعية ، التي هي أمي و أخبرته أنني سأكون في غاية السعادة إذا سمح لي بمقابلتها و التقاط صورة معها.

انتظرت ساعة تقريبا كي أتمكن من مقابلتها ، و شاركني في الانتظار زميل الجامعة الذي تعجب لتصرفي ، فسألني:

- لما تتوقين للقائها بهذه الطريقة؟ كنا سنأتي مرات أخرى و مؤكد أنك ستلقينها في مرة منهن.

تظاهرت بأنني أتابع أنشطة السيدة المسؤولة منذ فترة و أنني في غاية الإعجاب بها و لا أستطيع الصبر. كذبت و قلت له أنني أحببت العمل الاجتماعي حبا فيها.. و لا أدري لما كذبت ، لما لم أستطع قول الحقيقة؟ هل بها ما أخجل منه؟ و إن كان بها ما أخجل منه فلما أبحث عنها.. لما أبحث عن أمور تزعجني و تضطرنني للكذب.. إن كنت أبحث عنها لأجلي ، فماذا سيضيف حضورها بعد غياب تسعة

عشر عام. أم لأجل والدي... هل سأعرف منها أسباب حزنه ، فأستطيع أن أخفف عنه؟ ربما هو الفضول فقط ما يدفعني للتعرف عليها.. هو الفضول.

سمحت السكرتيرة لنا بالدخول إليها ، مكتب غاية في الفخامة وكأنه مكتب لشخص يحمل لقب وزير وهي امرأة بكامل الصفات التي تكتمل بها النساء ، عندما رأيتها تجمدت الدماء في عروقي... بات ذلك واضحا في برودة يدي وأنا أصافحها وفي بحة صوتي وأنا أنطق باسمها و أقول " سعدت بلقائك كثيرا سيدة...". عرفت زميل الجامعة باسمه و بالغت في مدحها لنشاط والده الاقتصادي و عرفتني بأنني أخته. كاد زميل الجامعة أن يصحح خطأها لكنني سبقته قائلة:

- نعم.. نحن إخوة..هل يمكنني التقاط صورة معك.. أنا معجبة بكِ وبنشاطك.

لم تكن طريقتي في الحديث أو طريقتي في الحركة تجاهها تعبر عن أي حماسة لطلبي أو سعادة لاستجابتها له. و حصلت يومها على أول صورة تجمعني بأمي؛ بين تساؤل زميل الجامعة و دهشته مما اعتراني أمامها.

وكي أعطيه مبررا قلت له:

- يبدو أنني مريضة ربما لا أستطيع الحضور إلى الجامعة غدا.

- هل تحتاجين طبيبا الآن؟

- ربما أحتاج للراحة أكثر..

عدت للمنزل و كأن خلايا جسدي أعيد ترتيبها لم أعد أرى شيء كما كنت أراه. أو أشعر بشيء كشعوري به في السابق ، حتى نفسي أحسستها غريبة عني. إنها تحيا في غاية السعادة محتفظة برونقها

مثل شابة في العشرين، لا أعتقد أبداً أن يعتقد من يعرفها أنها أنجبت ابنة في عمري. و أبي مازال يعيش مع ذكرياته و آلامه منها، لما يحترق هو وهي تزدهر. هل كان كرها معها لدرجة جعلها تتساني و تتساه.. لا يمكنني تخيل ذلك.

لم يحتمل جسدي هول ما أفكر فيه و ما أكتمه فسقطت مريضة عدة أيام، ارتفعت حرارتي جدا. تغيب أبي عن عمله ليرعاني و أغلق هاتفني. كنت أهلوس بأشياء غير مفهومة ثم أناديه في نومي. هكذا أخبرني بعدما شفيت.

كان أول ما عرفته بعد إفاقتي هو أخبار قضية النسب التي تخص صديقتي. أخبرني والدي أنّ وسائل الإعلام تناولت الخبر بلا استثناء وكذلك وسائل التواصل الاجتماعي. و تناولوا صوراً لصديقتي معه في تلك المدينة السياحية التي تقابلا فيها. لقد صارت الصديقة حديث الجميع. و مازال الإعلامي الكبير ينكر علاقته بها.

ظهر بعض من رأوها بصحبة الإعلامي ليشهدوا معها بأنهم شاهدوها سوياً في المطاعم و بعضهم قال أنه يسكن في شقة مقابلة لشقة الإعلامي في تلك المدينة و رأوها تدخل و تخرج بصحبته. البعض تعاطف معها، لكن الكثيرها جموها و البعض تخطى هجومه إلى السباب و القذف. لكن قليلون جداً من أدان فعلة الإعلامي. قليلون من دعوا إلى مقاطعة برامجه حتى يعترف بابنه و يُصلح ما فعله في حق تلك الفتاة التي مازالت قاصراً في حكم القانون. لكن ما استفزني حقاً قول الإعلامي، في أحد البرامج التي استضافته بعد اعلان القضية:

- جاءتني حيث أكون، هل أمتنع؟ أنا بشر ضعيف و كانت جميلة بما يكفي لتغريني.

غضبت المذيعة من قوله و قالت:

- نعم تمتنع فهنا تتحقق وتُعرف قوة الرجال.. حينما يكونوا
قادرين على حماية النساء من أنفسهم.

و أضافت:- إنها بعمر ابنتك

لكن المذيع الذي يُشاركها البرنامج حاول امتصاص غضبها
تجاه الإعلامي الضيف وقال وهو يوجه نظرة يفهمها العامة إلى
الضيف و يقول:

- أعتقد أن للقوة حدود..

علقت المذيعة سريعا:

- حدودها كان يجب أن تتوقف عند حدود عرض الفتاة، الضعف
لا يُبرر خطيئة سيدي و إن كان مبررا للرجل فالأولى أن يكون مبررا
للمرأة لأنها الأكثر ضعفاً.

و يبدو أن الحديث لم يرقُ لإدارة البرنامج فأنهوا الفقرة عند هذا
الحد.

أخيرا و بعدما ذاعت أخبار القضية للقاصي و الداني حضر والد
الفتاة من كندا، و لست أدري لِمَا حضر. ربما لينال بعضا من الشهرة
التي نالتها ابنته، وربما لأي سبب آخر غير أنه عائدا ليُضمد تلك
الجراح التي تسبب بها في حياة ابنته منذ طفولتها.

(لا أدري سبباً يجعل فتاة تُلقى بنفسها في أحضان من لا يليق بها
و يستحقها، غير أن تكون قد حُرمت من ذلك الحضان الذي وَجَبَ
عليه أن يكفيها و يحميها. يكفيها حبا و عظفا و يحميها من مجتمع
يحتقر أنوثتها و يعتبرها مجرد نقص و ضعف و أحيانا عار).

بعد ذبوع خبر القضية و انتشارها أكدّ علي والدي للمرة الثانية ألا

ألتقي بصديقتي في أي مكان عام.

استقبلني زميل الجامعة عند عودتي مبتهجا. كان يستعد لمراجعة ما فاتني من محاضرات. لكنني سألته عن شيء آخر. أردت معرفة المزيد عن الجمعية التي تديرها أمي. أردت أن أتيقن من شكِّ داخلي. هل حقاً هي صاحبة قلب كبير يشعر بألم الغير ويسعى لمساعدته، هل هي بذلك النقاء الذي يجعلها تستطيع أن تستشعر به معاناة الآخرين. وإن كانت بتلك الرقة لما لم تلتفت لي بإحساسها و لو لوهلة عندما كنت معها و لما أصاب والدي منها أذى يجعله يتألم إلى اليوم.

للمرة الثانية أخرج معه إلى نفس الجمعية التي صحبني إليها المرة السابقة، لكن اليوم اتجهنا حيث يقيم الأطفال و المرضى الذين ترعاهم الجمعية. حينما وصلنا إلى مدخل المبنى. أدهشني زميل الجامعة بسلوكه وجدته يُخرج أموالاً و يعطيها للعاملين مؤكداً لهم أنّ المال لأجلهم و أنه يود لو يرى بعض الذين ترعاهم الجمعية يعرف منهم ما ينقصهم لإحضاره. تبادل العاملون النظرات ثم أوماً أحدهم برأسه إيجاباً فتحرك آخر معنا قائلًا:

- تفضلوا.

كان الإهمال واضحاً في المبنى بالنسبة للتشطيبات و التجهيزات مقارنة بمبنى الإدارة. أما الأطفال فحالهم يثير الشفقة، همس إلينا العامل عندما رأيناهم، «إذا كنت تريد مساعدة هؤلاء فساعدهم بما يصل إليهم مباشرة لا بمال يمر على عشرة أيدٍ قبله.. إنهم يحتاجون للمأكل و أشياء صغيرة تسعدهم كبقية الأطفال».

سأل زميلي:

- ألا يصلكم ما يكفي من التبرعات؟

ابتسم العامل ابتسامة ذات مغزى و قال:

- التبرعات كثيرة لكن الأزمة في كثرة الأيدي التي تمر عليها، كل يريد منها حصته حتى لا يبقى لهؤلاء في النهاية إلا فتات لا يكاد يكفيهم للحياة.

و يبدو أن الزميل فهم قصدي من زيارتي للجمعية و بدأ يسأل و يستقصي أخبار المكان من العامل و يشكو له ضعف رواتبهم و نقص العمال في المكان مما يثقل عليهم في اتمام ما هو مطلوب منهم. لاحظت أن شعر الفتيات في نفس قصر شعر الأولاد فسألت عن السبب أخبرني أن سبب ذلك هو قلة عدد العاملين القائمين على رعاية الأطفال، فقلت:

- أمن قلة مال؟

فقال العامل:- المال الذي يأتي لأجل هؤلاء الأطفال كثير و لكن لا يصل إليهم منه إلا القليل، القليل الذي يحفظ وجودهم ليكونوا سببا في جلب المال للمكان باستمرار.

انتهت جولتنا في المكان و خرجنا و قد بدت أشياء كثيرة تتضح لي عن أمي لكن الصورة لم تكتمل و يبقى منها جزءا لا يستطيع إتمامه سوى أبي.

كنت أرى الاستفهام و التساؤل واضحان في حديث زميلي، لكنه بعد خروجنا من الجمعية سألتني:

- متى ستوضحين لي حقيقة أسباب بحثك خلف تلك الجمعيات، لا تحاولي خداعي بأنه مجرد فضول أو شغل فراغ.. الأمر يبدو لي أعمق من ذلك. أنت لا تلاحظين الشرود و الحزن اللذان يصيبانك بعد كل مرة زرنا فيها الجمعية.

ثم أضاف ذاكرا اسمي بداية حديثه:

- ... يمكنني الإحساس بالملك لكنني غير قادر على تخمين أسبابه. أخبريني إن كنت تملكين بعض الثقة في..
 لم أجد ما أجيبه به و لم أعرف ما يجب أن أقوله ، فكيف لا أثق به و أنا أعرف ما سأله لأبي ، قلت لتخفيف وطأة صمتي عليه:
 - صدقتي الأمر لا يتعلق بالثقة مطلقا..

و عدت لتأنيب ضميري فما كان لي أن أسمح أن تنمو علاقتنا أكثر و تزيد أحاديثنا يوما بعد يوم ، بعدما قررت وقفها ؛ و قد صارحت والدي بعدم رغبتني فيه كزوج. إن استجابتي له و قربنا يزيد أمله و تعلقه.. ما كان لي أن أعود و أدع له فرصة للتقرب أكثر ، ذاك ظلم لي و له. بل جريمة أستحق العقاب عليها.

سألني و أنا في غمرة صمتي:

- هل أنت مستعدة للامتحانات.. لم يتبقى سوى أسابيع.

سألته:- و هل أنت مستعد لها.. أم من أعدوا البحث سيستعدون

عنك..؟

خرجت منه ضحكة عالية و كأنه فطن إلى قصدي:

- كنت واثقا أنك ستكتشفين الأمر و لو بعد حين ، لكنني لم

أجد حيلة أخرى للحديث إليك. عموما فقد تعلمت منك كيف تكون الجدية في الدراسة و التفوق.



الفصل السابع عشر

كانت ليلة من ليالي يناير الباردة و أنا أجلس مع والدي بغرفة مكتبه و المدفأة تعمل حولنا. كان مشغولا بقراءة كتاب و أنا أذاكرو بلا مقدمات قررت الحديث ، قررت أن أخبره بما فعلته ليخبرني هو بقية الحكاية اخترق ندائي الصمت:

- بابا

- هل من خطب..؟

- لقد رأيت أمي.. شاهدتها عن قرب و عرفتها. إنها تماما كالصورة التي رسمتها في الألبوم منذ سنوات لم تتغير كثيرا....
سكتُ قليلا و تابعت:

- لقد كنت محقا في إعجابك بها.. إنها جميلة جدا ، لكني أظنها قاسية؛ ألم تكن قاسية؟

يبدو أنه استغرق وقتا حتي يستوعب حديثي فتجاهل سؤالي الأخير و سألني:

- أين رأيتها؟ ربما لم تكن هي..

أجبت:

- بل هي.. لقد بحثت عنها و ذهبت إليها في مكان عملها.

فتحت الهاتف و أظهرت له صورتي معها ، و حينها و جدت أبي يصرخ في وجهي لأول مرة متسائلا:

- هل تعتقدين أنك كبرت بما يكفي لتتصرفي كما تشائين؟

لما تبحثين عنها؟ ماذا تريدين منها؟ هل تريدين أن تتخذي منها قدوة

و مثالا في الحياة؟ لقد رحلت و تركتكِ لأجل المال. لم تفكر لمرة واحدة أن تعود لرؤيتك.

سكت قليلا و كأنه انتبه لأمر ما ثم سألني:

- هل عرفتكِ أو عرفتها بنفسك؟

سارعت بالقول:

- كان معي زميل الجامعة و ظننتني أخته؟

زاد غضبه لكن صوته خُفض قليلا و هو يقول:-

زميل الجامعة ، ألم تُقرري عدم الارتباط به فلما تقحميه أكثر فيما يخصك.. كان يجب أن تتبعدي لا أن تقتربي أكثر.. ألا تظنين أن بتصرفكِ معه قسوة أيضا.

صمتُ و خفضتُ رأسي، أحسست بأني أقمت حربًا في الكون كله، و أن وجودي أذى كبير لمن حولي. حاولت الاستئذان و الانصراف إلى غرفتي، لكنه أبى و أمرني بالجلوس و بدأ في إلقاء الأوامر لأول مرة.

طلب أن أضيّق علاقتي لأقصى ما يكون مع زميل الجامعة حتى تنتهي امتحاناتي و ألا أذهب مرة أخرى إلى الجمعية حتى نفس الوقت، نهاية اختبارات الفصل الدراسي الأول ثم تابع قائلا:

- أعرف أنها تزوجت بعد انفصالها عني بشهور قليلة، ثم انفصلت مرة أخرى عن زوجها و تزوجت بأحد رجال المال المعروفين و هو من أنشأ لها تلك الجمعية. و يبدو أنها وجدت عنده غايتها فلم تنفصل عنه.

- لمَ لم تخبرني منذ البداية؟

- لم يكن لك حاجة بمعرفة شيء عنها، إنها لم تهتم بك منذ

تركتكِ.

لم أسأله المزيد عنها ، فقد أصبحت أرى أن مجرد تذكرها إثارة
للهم والألم.

(غريب أمر الآباء يلقون عظاتهم و أوامرهم علينا، متجاهلين أننا
بشر يمكننا التقصير والعصيان. و نسألهم فلا يجيبون متخيلون
أننا لن نبحث عن المعرفة بعيدا عنهم و هم بذاتهم قد يسّروا
أسبابها بين أيدينا ... ثم يعاقبوننا لأننا سعينا للبحث و المعرفة
بعيدا عنهم)

الترمت بأمره حتى انتهاء الامتحانات، و بعدها بدأ يحدثني عن
زميل الجامعة و يطلب مني ألا أخسره فهو يراه رجلا مسؤولا و يحبني و
ليس هناك أفضل من صفاته يتمناها أب في زوج ابنته. لكنني أظهرت
اعتراضي رغم إحساسي بالتردد بين القبول و الرفض، و كأنني أريد
فقط أن ألقى بالموضوع عن ذهني.

وعندما سألتني أبي عن أسباب اعتراضني قلت له بأنه يملك المال
و السلطة و الشباب و ذلك يُغري أي فتاة في عمري.. أريد زوجا أحب
ضعفه قبل قوته و فقره قبل غناه حتى إذا جاءت عليه الأيام و فقدهما
أظل على حبي له. و أخبرت أبي أن أخبره أنا بما أود فربما كان ذلك
أهون على نفسه.

هااتفته و أخبرته أنّ والدي قد أخبرني عن رغبته في الارتباط بي
لكنني رغم احترامي له فلا أستطيع تصوره أكثر من أخ.

أجاب بنبرة حزينة أنّ ما يهمه في النهاية هي سعادتي و قد طلبني
للزواج لأنه تصور أنه يستطيع تحقيقها. وأنه علي اختيارها أينما
وجدتها.

أعلم أنّ مبرري له كان مائعا بلا معنى و قد استثارني الحزن الذي
شعرته و كذلك أسرني قوله «كل ما يهمني سعادتك و تصورت أنني

قادر على تحقيقها». حزننت كثيرا بعد حديثي معه و كأنني فقدت أجمل شيء تعثرت به في حياتي.

و بمجرد أن أنهيت حديثي أخبرني أبي أنه أراد مني تحديد موقفي تجاه زميل الجامعة لأن هناك شخص آخر، ولا أدري لما سرح عقلي سريعا نحو فتى الشرفه و كان ظني على حق.

كان موعده معنا مساء اليوم التالي، فرحة تغمرني و أنا بانتظاره، و كأنني سأحظى بجناحين أطيّر بهما و ليس مجرد انتظار خطيب جاء ليتعرف إلي. لكن شيئا ما كان يشوب تلك الفرحة المبالغة، شيء بلا تفسير.

تقدمت و جلست في الكرسي المقابل لأبي و قرأ أبي رأبي في عيني قبل أن يسمعه مني بعد ذهاب فتى الشرفه. لقد وافقت بسرعة على طلبه لم أعطي نفسي فرصة للتفكير في أي شيء. لم أسأل عن شيء يخصه و اكتفيت بأسئلة أبي. وافقت بسرعة على رؤيتي القديمة له و احساس المراهقة القديم داخلي به...

كان المفترض أن أقرر أن أقبل به أو أرفض بمقاييس رؤيتي للحياة في سني التي طلبني فيها، لكنني لم أفعل. و اكتفيت بإيقاظ أحلامي الصغيرة التي كان هو بطلها.

و رغم ذلك فلم يكن فتى الشرفه سيئا... كان جيدا بكل المقاييس التي تميز زوج جيدا كما يرى أبي، لكن أبي لم يقل لي و لو لمرة واحدة أنه يحبني، كما قال عن زميل الجامعة؛ رغم أنني ظننت أنه يحبني في أوقات كثيرة.

كنت أتابع الأخبار على هاتفي، كما أفعل عادة فوجدت صورة أمي و تحتها عبارة " صاحبة جمعية خيرية تختلس أموال التبرعات لصالحها و الأطفال لديها يعانون الإهمال و أمراض سوء التغذية "

كان الخبر مصحوبا بكثير من الصور التي رأيت واقعتها سابقا مع زميل الجامعة. أحسست بكثير من الغضب و قررت أن يكون اليوم هو نهاية ذكريات أبي الحزينة، ودخلت مكتبه وهو مستغرقا في عمله. أخبرته أنني أحتاجه لأمر عاجل وكفى له من تأجيل. وضع قلمه ثم رفع رأسه لي متسائلا:

- ماذا؟

أخرجت ألبوم الصور الذي يحتفظ فيه بصور أمي ثم أريته الخبر و قلت له:

- مؤكداً أن هذه ليست من أحببتها، لقد أحببت و عشقت صورة صنعتها لها بخيالك، صورة لم تستحقها و لم تملك منها إلا إطارها الفاتن. و وضعت الألبوم إلى جوار الهاتف و قلت انقص خيالك و انظر إلى الواقع.. هناك من يحتاج حبك أكثر.. لا حاجة لك الآن لأن تهدر مشاعرك لمن لا يستحق..

أمسك أبي الألبوم و خرج من غرفة المكتب متجها للمطبخ و اتجه نحو الموقد و أشعله و أنا أتابعه بدهشة. أشعل الموقد و بدأ في تمزيق الألبوم ورقة تلو الأخرى و يشعلها حتى وصل إلى آخر صورة و التي تجمعني بهما فقام بفصل الجزء الذي يحتوي صورة أمي و أحرقه قائلاً:

- ما بقي يكفي، لا حاجة لي أن أبحث خلف ما ضاع.

هنا رأيت الكون بلون آخر، لون وردي يحوي الأمل. اقتربت من أبي و طبعت قبلة على خده، قائلة:

- أحبك.

أخيراً و بعد بداية العام الدراسي الجديد بأيام قليلة تمّ إثبات نسب ابن الصديقة و قررت المحكمة أن يدفع الأب نفقةً له و بدلاً لرعاية

أمه له. لكن لم يجرم القضاء قط الطريقة التي جاء بها هذا الطفل للكون... لم يُحاسب والده على انكاره له منذ حملت به أمه و لم يُنكر على الأم أنها قصّرت في حقه في أن تلده كريما ذا عزة و شرف.

كنت على موعد مع خاطبي فتى الشرفه و كنت أنتظره و أنا في غاية السعادة، هكذا كنت أنتظره كل مرة. و قبل أن يأتي بدقائق قليلة و جدت صديقتي القديمة تطرق الباب. جاءت لتشكر لي و لوالدي حُسن صنيعنا معها. و اعتذرت انها لم تتصل قبل الحضور. لكن ماذا يفيد الاعتذار؟ و لما الاعتذار فحياتنا كلها أقدار تسوقنا لأقدار.. حضر فتى الشرفه و رأى الصديقة تجلس بصحبتني في حجرة الاستقبال بالمنزل. لم يُعلق و لم يتكلم، لكنه رمقها و رمقني بنظرة الكل يفهمها ثم تركني و خرج دون أن يقول أي كلمة. حسبته غضب لوجودها فقط و ذهب، لكنه اعتذر لوالدي عن الخطبة بعد أيام.

هل كنت مخطئة حين ساعدتها. لقد أرادت التوبة و إدراك الحق و الصواب.. هل أخطأت حين أخذت بيدها؟ أنا لم أخطئ ولكني ساعدتها كي تبتعد عن طريق الخطايا...

هل هذا جزائي؟ و إن كان ذلك هو جزائي فأنا لست نادمة. سأخرج الآن أمام الستار، فليس هناك ما يُخجلني.

و أشكرها أمام جمعكم فكما كنت لها عوناً في محنتها؛ فقد كانت لي هي أيضاً عوناً في اكتشاف ذاتي وربما إنقاذي من خدعة ربما عشت فيها عمري، إنها خدعة حب فتى الشرفه، الذي أخذني الوهم في حبه لرفض آخر حقيقي.

العلاقات الكثيرة تجعل الأحاسيس و المشاعر تختلط و لا تصفو فلا نستطيع تمييز الصادق من المزيف فيها.

النهاية

خرجت سلمى من خلف الستار وكشفت وجهها و بعد كثير من التصفيق، بدأ الحضور كلهم ينصرفون، بعضهم اقترب منها يحييها والبعض خرج مبتثسا و لم يتابعها إلا بنظرة مستهمة، و كأنه يقول كان الأولى بك أن تنفسي يديك منذ البداية.

خرج الجميع إلا اثنين أحدهما والدها الذي أصرّ أن يكون لها عوناً في تلك المواجهة كما كان دائماً و أما الآخر فكان زميل الجامعة الذي دعاه الأب للحضور، ربما ليوضح له الموقف برمته و يؤكد احترامه له. اقترب منها و قال:

- اعتقد أنكِ صرت أكثر نضجا لتتخذي قرارا أصوب.

لم تكن سلمى في حالة تسمح لها بأن تعطي أي رد أو انطبعا لما تشعره. و لكنها رحبت بدعوة والدها لزميل الجامعة بتناول مشروب معهم.

و كأنها كانت تخاف أن يرحل هو الآخر دون توضيح أسباب فقررت أن تتحدث بما تظنه سرا، فخفضت صوتها و سألته:- هل تدري من هي السيدة التي زرناها في الجمعية و التقطت صورة معها؟
أجاب بكل ثقة:

- إنها والدتك..

وأضاف:

- هل كنت تعتقدين أن أرى اهتمامك بشيء ولا أبحث فيه.
على بُعد أمتار كانت الصديقة القديمة، والتي نظّمت المقابلة

لأجلها كي تدافع عنها عندما تركها خاطبها فتى الشرفة؛ تنظرها لتودعها قبل عودتها لكندا مجددا مع والدها.

نظرت إلى والدها و كأنها تسأله أمازلت على رأيك القديم، فهز رأسها موافقا بأن تذهب إليها و هو يبتسم

استأذنت سلمى لتوديع صديقتها و عاهدتها على أنهما لن تفترقا، ثم عادت حيث والدها.

رحلت الصديقة إلى كندا مرة أخرى مع طفلها و قد وعد والدها بأن يوفر لها و لطفلها سكنا آمنا بعيدا عن زوجته الأولى، لعله يغفر لنفسه تقصيره السابق معها.

تمت الإسكندرية ٢٠١٩ سبتمبر

